الفن والعمارة عند العرب

تأليف

محمد إبراهيم الصيحي

الكتاب: الفن والعمارة عند العرب

الكاتب: محمد إبراهيم الصيحي

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

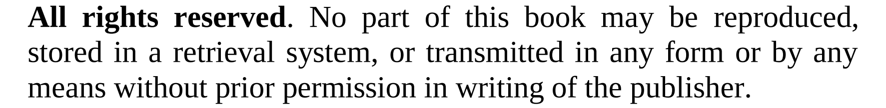
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com



دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الصيحي ، محمد إبراهيم

الفن والعمارة عند العرب / محمد إبراهيم الصيحي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٧٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٧٧١ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٤٦٤ / ٢٠١٨

الفن والعمارة عند العرب





مقدمة

"شغل المسلمون في عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بنشر دين الله وبناء الدولة الإسلامية الجديدة، فكان من الطبيعي أن تتسم حياتهم في هذه الحقبة من التاريخ العربي بطابع البساطة ولكن بالتدريج، وبعد استقرار العرب واختلاطهم بغيرهم من الأمم المجاورة أخذت فنون هذه الأمم تسترعي اهتمامهم، وبدأوا ينقلون أساليبها ثم يطبعونها بطابعهم الخاص، وظهر الفن العربي في مختلف صوره وأشكاله".

يمكن أن نقسم الفنون إلى قسمين رئيسين، الفنون الجميلة وتشمل التصوير والزخرفة والنحت والعمارة والموسيقى والتمثيل، والفنون الصناعية وهي التي تعتمد على الطرق الآلية ولكنها تخرج مشربه بروح الفن الجميلة مثل صناعة الخزف والزجاج والفسيفساء، والنجارة والصباغة والتكفيت والمنسوجات المزخرفة.

وقد كان للعرب دور بارز في كل هذه الفنون، ولكن هذا الدور يتفاوت من فن لآخر، فلم يتحمس العرب مثلاً لفن النحت والتماثيل نظراً للنزعة الدينية القوية التي كانت تسيطر عليهم والتي كانت تمقت الوثنية والأصنام فنفروا منها، ولكن ذلك لم يمنع من إقبالهم على هذا الفن إبان الحكم العباسي في بغداد، والحكم الأموي في قرطبة، وفي فترات أخرى من تاريخهم.

وما كاد العرب يخرجون من جزيرتهم ويضربون في الأرض فاتحين مجاهدين، حتى بدأت صفحة جديدة في حياتهم، كان من بينها اهتمامهم بالفنون وتذوقهم لها، فأخرجوا من الآثار الفنية ما يشهد لهم بسلامة الذوق والإحساس المتأصل بالجمال، فقد ابتكروا وصنعوا ما بهر العالم كله، وأصبحت المدرسة العربية في الفن، المنهل الرئيسي الذي نهلت منه أوربا قروناً عديدة، والأساس الذي بنت عليه كثيراً من فنونها.

والفن العربي له شخصيته القائمة الواضحة المحددة المعالم والجوانب، وله تاريخه ومميزاته رغم تأثره في أدواره الأولى بفنون بعض الأمم المجاورة كالفرس والروم، ولكنه ما لبث أن اتخذ لنفسه طابعاً عربياً خالصاً وازدهر كفن عربي أصيل، تميزه أي عين خبيرة وفي هذا يقول العالم الفرنسي جوستاف لوبون:

"يكفي أن يلقي الإنسان نظرة على إحدى البنايات التي أقيمت في دور راق من أدوار الحضارة العربية مسجداً كان أو قصراً، حتى يجزم أن هذه البناية عربية، لا يرى فيها أية صلة ظاهرة بأمة أخرى، فالإبداع في فن العرب واضح. بل لقد ورثت الدول الأخرى عن العرب فنهم، وهذا هو الفرق بين الفن المبتكر وغير المبتكر".

ويتميز الفن العربي إلى جانب ذلك كله بتنوع الإنتاج والشكل والزخرفة، فكان نادراً أن نجد تحفتين متماثلتين تماماً، رغم تباعد أرجاء الدولة الإسلامية الممتدة من حدود الصين شرقاً حتى الأندلس غرباً فقد امتازت المباني العربية بطرز من الأعمدة والأقواس والعقود والقباب

والزخارف البارزة، وبتيجان بعض الأعمدة وكذلك بالزخرفة القائمة على الأشكال الهندسية كالمضلعات والدوائر والمثلثات أو كالزهور والنباتات والطيور والحيوانات.

كما برع العرب في الزخرفة باستخدام الخط العربي، وذلك بكتابة آيات من القرآن الكريم أو عبارات دينية أو أسماء الرسول والخلفاء أو أبيات من الشعر أو عبارات الترحيب، كل ذلك بشكل متناسق جميل يجمع بين البراعة والذوق السليم.

وفي الصفحات التالية سوف نقوم بإلقاء نظرة سريعة على الفنون الصناعية التي اشتهر بها العرب، ثم نعرض فن العمارة الإسلامي، مساجده ومدنه وقصوره. ثم نختم الكتاب بفصل عن الموسيقى والغناء عند العرب.

المؤلف

القاهرة في مارس١٩٧٤

ألوان من فنون العرب الصناعية

"ترك العرب ثروة فنية ثمينة تتمثل في المنسوجات الملونة والزخرفة بأنواعها والستاير والبسط النادرة كما تعد صناعاتهم المعدنية والخزفية والزجاجية آية في الذوق الرفيع، هذا عدا إسهامهم في إنتاج شتى المصنوعات التي تطلبها حياتهم الجديدة".

عرف العرب صناعة المنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية وبرعوا فيها، وقد اشتهرت دمشق بوجه خاص بنوع من المنسوجات الحريرية عرف باسم "داماسك" نسبة إلى المدينة العربية "دمشق"، كما عرفت الموصل بنوع آخر من القماش اشتهر باسمها "الموسلين"، وفي نفس الوقت عرفت الكوفة بنوع من المنسوجات المشجرة المصنوعة من الحرير أطلق عليها اسم "الكوفية".

كما كانت مصر من أكبر مراكز صناعة الأقمشة، فإلى جانب ما كانت تنتجه مصانع دمياط وتنيس من الأقمشة الكتانية الملونة، اشتهرت بصنع نوع آخر من الأقمشة الكتانية الثقيلة عرفت باسم "الديبقي"، وقد بلغ من متانتها وثقل وزنها أنه كان يسمع لها من بعيد إذا انشقت صوت عال، وبيع الثوب الواحد بأكثر من مائة دينار، كما صنعت نوعاً من الثياب أطلق عليه اسم "البدنة" وكان مقصوراً على الخلفاء وتبلغ قيمة الثوب أحياناً ألف دينار إذ كان يصنع من خيوط الذهب الخالص، ولا

يحوى من الغزل سداة ولا لحمة سوى نحو أوقيتين، وكانت مصر تصدره بطبيعة الحال للعراق حيث مقر الخلافة.

وفي فارس عرفت كازرون بشهرتها في إنتاج الأقمشة الكتانية وذاع عنها اسم "دمياط الأعاجم" واشتهرت "كرمان" بصناعة الأقمشة القطنية.

وقد تفنن العرب في زخرفة الأقمشة وتزيينها برسومات متجانسة بل وذهب بعضهم إلى رسم خرائط جغرافية على الأقمشة كما فعل المعز لدين الله الفاطمي حين أمر ٣٥٣هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق المنسوج بالذهب مبيناً عليها أقطار العالم بما فيها من أنهار وبحار وطرق مهمة، وقد جاءت آية في الجمال كما ظهرت فيها مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة.

وقد صنع العرب أيضاً البُسط والسجاجيد، وغمرت المصانع العراقية والسورية والمصرية وكذلك الفارسية، أسواق العالم بإنتاج يتم عن ذوق سليم يتميز بألوانه المتناسقة وزخرفته الرائعة، كما أنتجت مدينة الفيوم الستائر الملونة الجذابة لتغطي النوافذ والأبواب في القصور، وقد بلغ طول بعضها نحو الثلاثين ذراعاً وكان يباع بثلاثمائة دينار.

وقد ساهمت المرأة في هذه النهضة الصناعية وسارت كما يقول آدم متز في كتابه "عصر النهضة الإسلامية" جنباً إلى جنب مع الرجل فشاركته في صناعة النسيج في مصر، وكانت تقوم بغزل الكتان وتترك للرجل مهمة نسجه، وتتقاضى أجرها حسب إنتاجها، مما ساعد على وفرة هذا الإنتاج.

أما في ميدان صناعة المعادن الثمينة، فقد برع صناع بغداد في إنتاج أنواع مختلفة من الكؤوس المنقوش عليها أشكال طيور في أوضاع شتى وخاصة العقبان التي كانت تنقش على جدران الكؤوس وبجانبها كلمة أو عبارة قصيرة كتبت بحروف مجسمه بارزة، وكانت هذه الكؤوس تستخدم عادة في قصور الخلفاء كما صنعت المصانع العربية الأوسمة وبعض الأواني الزجاجية المرصعة بالجواهر، وصنع العرب نقودهم بأيديهم لأول مرة بعد أن كانوا يستخدمون عملات الروم الذهبية والفضية، ذلك بعد أن أمر عبد الملك ابن مروان عام ٦٢ هـ أن تسك نقود إسلامية فصنعوا الدينار من الذهب، والدرهم من الفضة والدانق من النحاس. وكان يكتب على أحد وجهيها اسم الخليفة، وعلى الوجه الآخر عبارات مختلفة مثل "لا إله إلا الله" "محمد رسول الله" "الله أكبر" "الحمد لله" وكانت تكتب بحروف جميلة واضحة.

وتميزت الصناعة الدقيقة عند العرب بفن التكفيت، ويعني إدخال خيط من الذهب أو الفضة في المعدن المراد تكفيته، ويكون هذا الخيط بارزاً أو مسوى، وأحياناً يتم تركيب زهرة من الذهب أو الفضة على إناء من الفولاذ أو النحاس، وقد يتكرر رسم هذه الزهرة في شكل متناسق يحده خطان متوازيان يشبهان الإطار.

وقد تجلت روح الإبداع العربية في ترصيع الأسلحة أو الآنية المكفتة بالفضة والمموهة بالميناء. وكذلك في صياغة البللور، مما يتعذر الوصول إلى مثله اليوم لما يتطلب من جهد ودقة بالغين.

وقد عرف العرب الصناعات المعدنية الثقيلة بعد أن اكتشفوا كثيراً من المعادن في أرضهم واستغلوها، ومنها مناجم الفضة والرصاص والنحاس والحديد والنفط والمرمر في شمال فارس وخراسان والأندلس، والحديد في الشام قرب بيروت، والذهب في الأندلس قرب نهر تاجه، هذا عدا "الرخام بأنواعه الأبيض والأحمر والمجزع والخمري" والخزف. وقد بادر العرب إلى استغلال هذه الثروات الطبيعية وصنعوا المناطق القريبة منها.

وخلف العرب ثروة لا تزال بقاياها قائمة حتى الآن تنطق بمهارتهم في الصناعات الخشبية المرصعة بالصدف أو العاج، فكانت منابر المساجد وأبواب القصور في أرجاء العالم الإسلامي ترصع عادة بأصداف تأخذ شكلاً هندسياً رائعاً يحمل الطابع العربي الأصيل، كما صنعوا المشربيات المخرمة في المباني والقصور "لتمنع رؤية الأجنبي لحريم الدار، وفي نفس الوقت تسمح بالتهوية والإضاءة"، ومن الخشب صنعوا صناديق جميلة مطعمة بالعاج كانت تخصص عادة لتقدم فيها الهدايا للملوك والكبراء.

هذا إلى جانب نبوغهم في فن الحفر على الخشب والجلد.

فن العمارة الإسلامية

"لم يكن لدى العرب قبل الإسلام مبان ذات شأن ولكن بعد ظهور الإسلام، أصبحت لهم عمارتهم ذات الصبغة العربية والطابع الإسلامي الخاص".

كانت أغلب المباني العربية في العصر الجاهلي من الطين أو الآجر وكان أقلها من الحجارة، وكانت كلها – في العادة– ذات طابق واحد، وقد حرص العرب – قدر إمكانهم – على حفر بئر في قلب بيت كل منهم يتزودون منه بحاجتهم من الماء.

ولما جاء الإسلام، أمر النبي بأن تكون مساجد المسلمين بسيطة، لا تعقيد فيها ولا تكلف، وكان المسلمون يفدون على منطقة الحجاز إبان الحج فيشاهدون مساجد المدينة ومكة، وغيرهما من مدن الحجاز ويقلدونها بإنشاء مثيل لها في بلادهم.

ولكن ذلك لم يمنع من تطور المساجد وإدخال تعديلات وإضافات عليها مما سنعرض له، أما عن البيوت والقصور فقد بدأت تأخذ طابع الفخامة فأصبحت تبنى، عادة، بالحجر أو بمزيج من الكلس والرمل والصلصال والحصباء لا يلبث أن يصبح صلباً كالحجارة يعمل مئات السنين، بل لقد عمرت بعض الأبنية المشيدة بهذا الخليط زهاء ألف عام.

ولم يتردد العرب في الاستعانة أول الأمر بمهرة الصناع والبنائين من البلاد التي فتحوها، وخاصة دولتي الفرس والروم، وأخذوا عنهما بعض طرز عمارتهم ثم تحرروا من أغلبه، وانتهوا إلى ابتكار طراز خاص بهم يتفق وطبيعة بلادهم.

وقد تميزت العمارات الإسلامية – إلى جانب المآذن – التي اختصت بها المساجد، بالأقواس والقباب والأعمدة والمقرنصات.

أما المآذن فترجع أهميتها إلى اتخاذها أداة لدعوة المسلمين من فوقها إلى أداء شعائر الصلاة، وتتفاوت أشكالها، فبعضها مخروطي والآخر أسطواني وأغلبها متوج بأنواع من الشرفات الصغيرة الدائرية الشكل المعروفة باسم الحواجز ليتنقل فيها المؤذن أثناء الآذان.

أما الأقواس التي يتميز بها فن العمارة العربي، والتي نلاحظها في كثير من المساجد والقصور، فتتخذ أحياناً شكل حدوة الحصان أو الشكل نصف الدائري، بينما تعد القباب مميزة للمزارات أو الأبنية بالمساجد والتي تضم ضريحاً لأحد الصالحين، فحيث توجد قبة، فهناك ضريح تعلوه. أما الأعمدة ذات الطابع العربي فيتوجها عادة تيجان وزخارف من الجص المجسم. بقيت المقرنصات أو المتدليات، وتعد من مميزات فن العمارة العربي الذي انفرد بها، وهي ميزة غير معروفة في عمارة الأمم الأخرى، وقد عمت الوطن الإسلامي كله.

وإذا كان الخلفاء الأمويون قد تركوا العديد من المساجد والقصور المهمة، فإن الخلفاء العباسيين قد خلفوا ثروة معمارية هائلة تتمثل في

مئات المساجد والقصور الضخمة التي تباري الخلفاء وكبار رجال الدولة في إقامتها.

أما في الأندلس، فقد أكثر العرب من تزيين مبانيهم بالنقوش العربية، وأكثروا من المتدليات المؤلفة من الأقواس الصغيرة على شكل أقرب إلى خلايا النحل وكان منظرها ساحراً عجيباً، وأكثروا من استخدام الأقواس نصف الدائرية أو التي تأخذ شكل حدوة الحصان، ويعد قصر الحمراء في غرناطة مثلاً بارزاً لروعة الفنون الإسلامية في هذه البقعة من أوربا. ويسوقنا هذا إلى التوقف قليلاً للكلام عن الزخرفة عند العرب.

فالواقع أن العرب كان لهم دائماً ذوقهم السليم في هذا الفن الجديد عليهم، فعرفوا استخدام الرسوم الهندسية في النقش، سواء اتخذت هذه الرسوم شكل نبات أو حيوان أو طائر، وقد شاع هذا اللون من النقش على الخشب أو المرمر أو المعادن أو الزجاج، كما وجدت مجالاً واسعاً لها على الجدران حيث تمتد إلى مسافات بعيدة تسمح بتكرار الرسم في شكل زخرفي جميل.

واستخدم العرب أيضاً الخط كوسيلة للزخرفة والتزين، وقد كان للخط الكوفي في الصدارة في هذا المضمار بسبب طبيعة رسمه الذي أهله ليكون أداة ممتازة في الزخرفة، فكان من الخصائص البارزة للفن الإسلامي، وقد كثر استخدامه على الجدران والأقمشة واللوحات والأواني على شكل شريط زخرفي.

فكانوا يكتبون بهذا الخط آيات قرآنية كريمة أو عبارات "بسم الله الرحمن الرحيم" أو "لا إله إلا الله محمد رسول الله" أو بيتاً من الشعر أو اسم الخليفة، وإلى غير ذلك من الكلمات أو الجمل المناسبة.

ويعلق العالم الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب" على ذلك بقوله: "لقد بلغ الخط العربي من الصلاحية للزينة ما جعل رجال الفن المسيحي في القرون الوسطى في عصر النهضة يكثرون من استنساخ ما كان يقع تحت أيديهم اتفاقاً من الكتابات الدينية الإسلامية ليزينوا بها المباني المسيحية وخاصة الكنائس، وفي إيطاليا الشيء الكثير من هذا القبيل".

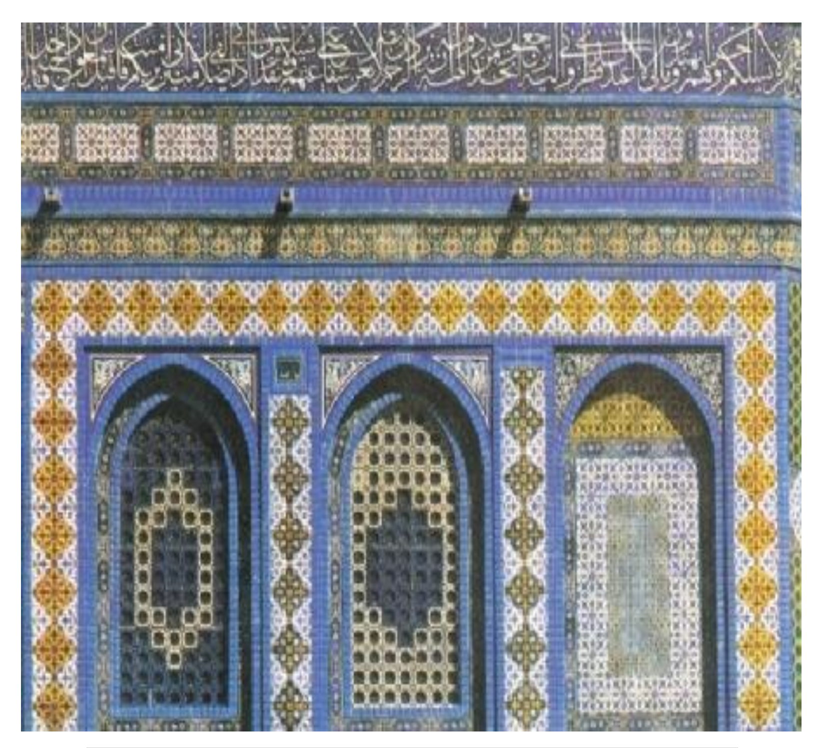
وإلى جانب ذلك عرف العرب الزخرفة بالجص بالنقش البارز أو تدوين عبارات به، وقد كثر هذا اللون بشكل خاص في الأقواس والأبواب وعدد كبير من المساجد والقصور.

ويسجل للعرب براعتهم في استخدام الألوان استخداماً يدل على سلامة الذوق، فإن نقوشهم الزاهية البراقة التي لا تزال موجودة للآن على الجدران والأواني الزجاجية والخزفية والمرمرية والفخارية والفسيفساء تنطق ببراعتهم الفائقة في هذا المضمار.

وكان للعرب ذوقهم الخاص في صناعة الفسيفساء، فكانوا يختارون لها الألوان المتناسبة، ويعمدون إلى تزيين جدران القصور أو محاريب المساجد الكبيرة بقطع من الفسيفساء الملونة من قطع من الزجاج التي تأخذ شكل مكعبات صغيرة أحياناً طول ضلعها نحو سنتيمتر

واحد، ويشمل بعضها على أكثر من لون مما يحدث تمازجاً بين الأضواء المنعكسة، وكانوا يطلون بعض هذه المكعبات بطبقة ذهبية يدوم لمعانها زمناً طويلاً بلغ بالنسبة لبعضها نحو الألف عام.

وإلى جانب ذلك كله صنع العرب المرايا. والمصابيح الزجاجية التي زينوا بها المساجد والقصور والأواني الخزفية المطلية بالميناء ذات البريق، وغير ذلك من الصناعات التي قلدها الأوربيون ونقلوها مع ما نقلوا من تراث العلوم والفنون الإسلامية.



"آلاف من قطع الفسيفساء الجميلة الملونة تزين جدار أحد المساجد"

"يلاحظ استخدام الكلمات العربية في خرفة السقف في شريط دائري طويل مجسم"

ويلمس كل من ينعم النظر في القباب الأربع التي بناها المنصور على أبواب مدينة بغداد وهي باب خراسان وباب الشام وباب البصرة وباب الكوفة– عظمه فن الزخرفة في عهده، فقد بلغ قطر كل قبة خمسين ذراعاً، وزخرفت بالذهب، وحليت بصور مجسمة ورسوم بديعة.

ورغم تحرج المسلمين عن النحت أو التصوير وعدم تحمسهم لممارسة هذين الفنين، فإننا نلاحظ أن هذا الحرج بدأ يضعف بمرور الوقت نظراً لعدم وجود نص صريح في القرآن يحرمهما أو يمنعهما. وقد روى المقريزي أنه عثر في قصر الخليفة الفاطمي المستنصر حين نهب عام ٤٦٠ هـ (نحو ألف قطعة من المنسوجات المصورة، وكانت البسط المصنوعة من نسائج الذهب والحرير المخمل مزينة بتصاوير بعضها لآدميين وبعضها لحيوانات أو طيور) مما يدل على حذق مصوري العرب في مصر في هذه الفترة، كما تكلم عن العثور على صورتين لمغنيتين يكاد الناظر إليهما يجزم أنهما مجسمتان إذ تبدو الأولى وقد ارتدت ثوباً أبيض رسمت على جدار أسود اللون فتبدو كأنها داخلة في الجدار المصورة عليه، بينما تبدو الثانية على العكس، ترتدي ثوباً أحمر اللون على جدار أصفر وتبدو كأنها خارجة منه نحو الناظر..

كما تكلم المقريزي عن رسم "سلم" كان موجوداً في أحد قصور القاهرة، وقد جاء الرسم متقناً بحيث يبدو كما لو كان سلماً حقيقاً.

وتحتوي كثير من المخطوطات العربية على صور شتى لأشخاص وطيور وحيوانات، كما ذكرنا، وظهر ذلك بوجه خاص في الأندلس ويعد قصر الحمراء نموذجاً ناطقاً لهذا اللون من الفن، فإن سقف إحدى قاعات هذا القصر. وهي قاعة الحكم، تشمل وحدها على صور لموضوعات مختلفة تصور الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية السائدة إذ ذاك، ومنها منظر لفارس عربي يطارد فارساً أوروبياً مطاردة المنتصر، ومنظر آخر لمجلس أمراء من العرب، هذا عدا عشرات المناظر المتناسقة التي تؤلف باقات فنية بديعة.

أما التماثيل فكان إنتاج العرب لها نادراً بوجه عام، ولكن رغم نفور المسلمين من هذا الفن وعدم إقبالهم عليه، فقد وجد في بعض القصور العربية بعض التماثيل، أما في الأندلس فقد تم صنع تماثيل كثيرة ويعد قصر الحمراء بما حوى من تماثيل عديدة للأسود والعقبان خاصة في قاعة الأسود، تحفة فنية، ما تزال حتى اليوم مقصد الزائرين من كل أنحاء العالم، وموضع دراسة العلماء والفنيين وتحليل دقيق لخصائص الفن العربي في المعاهد والكليات الفنية.

المساجد في الإسلام

كمظهر للعمارة الدينية

"العمارة الإسلامية، إما دينية وتتمثل في المساجد وإما مدنية وتتمثل في المدن والقصور، وإما حربية تتمثل في القلاع والحصون، وسنعرض في الصفحات التالية للونين الأول والثاني لتعدد الظاهر الفنية المختلفة فيهما".

للمسجد منزلته العميقة في نفوس المسلمين، وقد احتل هذه المكانة الرفيعة منذ وجد، فقد كان إلى جانب اتخاذه مكاناً لتأدية شعائر الصلاة واجتماع المسلمين فيه خمس مرات كل يوم، مركزاً لنشاط متعدد الجوانب، ديني وثقافي واجتماعي وسياسي، ففي المساجد كانت تؤخذ البيعة للخلفاء وعلى منابرها كانت تلقي خطبهم الأولى التي تحدد منهاج كل منهم وطريقته في تسيير دفة الحكم وفي رحابه كان يجتمع الصحابة، وتستقبل الوفود القادمة من الأقطار المجاورة، وفيه كانت تعلن أنباء الحروب والانتصارات، ويستنفر المجاهدون للقتال. هذا إلى جانب اتخاذه دارا للعلم ومكانا للدرس، وفيه يعقد القاضي جلسات محكمته فيقضي بين الناس. وكانت المساجد تظل مفتوحة الأبواب ليل نهار، إلا في أحوال قليلة. تستقبل الوافدين إليها من الغرباء الذين يأوون إلى بيت الله، مما يخفف عنهم متاعب رحلتهم وأسفارهم.

فالمسجد إذن كان بمثابة مركز إشعاع ديني وعلمي واجتماعي قوي يعتبره كل مسلم بيت الله، ومن هنا كان الخلفاء والحكام في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يهتمون به، فأدخلوا على نظام المسجد البسيط الذي أقامه الرسول الكريم، الكثير من التعديلات والإضافات والتحسينات المتجددة الدائمة ليتفق المسجد ومكانته العميقة في نفوس المسلمين.

لقد أراد النبي لمسجده أن يكون بسيطاً لا تعقيد أو مغالاة فيه، وقلد المسلمين أول الأمر هذا النظام، ولكن بمرور الوقت بدأ الخلفاء مع مطلع عهد الأمويين يعدون ويزيدون في بنائه، وكان معاوية أول من اتخذ لنفسه مقصورة في المسجد الذي يصلي فيه بدمشق، وكان ينتظر فيها حتى يحين موعد الصلاة خشية أن يتعرض لحادث اغتيال كما وقع لعمر فيعتدي عليه أحد خصومه السياسيين.

وظل هذا النظام سائداً ومعمولا به في كثير من المساجد حتى الوقت الحاضر، لأنه وجد هوى في نفس الخلفاء من بعد معاوية، سواء في أسرته أو في الأسرات الحاكمة الأخرى في المشرق والمغرب على السواء.

ومن التطورات التي أدخلت على المآذن، اتخاذها لأشكال هندسية أو معمارية مختلفة، وتفنن المسلمون في تزيين المحراب وهو الذي يحدد جهة القبلة وكان هذا التزيين يتمثل عادة في بعض الآيات القرآنية الكريمة أو بكلمات وأحاديث دينية أو أسماء الرسول والخلفاء

الراشدين هذا إلى جانب طلائه بألوان شتى وزخرفته برسوم متناسقة كانت تتفاوت من مسجد لآخر حسب أهميته وضخامته.

كما أضيفت الإيوانات إلى كثير من المساجد.

وإلى جانب ذلك كله، لم يبخل المسلمون على إضاءة المساجد ليلاً بالقناديل الثمينة التي كانت تعلق في سلاسل حديدية، وذلك منذ الغروب إلى ما بعد صلاة العشاء، وقد تعالى الحاكم بأمر الله في مصر في إضاءة مسجده، حتى يروى أنه أمر بإنارته بتنور كبير من الفضة بلغ من ضخامته أن اضطر العمال إلى خلع أبواب المسجد حتى يتسنى إدخال التنور فيه، ويقال بإلقاء نظرة سريعة على قصة بناء الكعبة. وفي الصفحات الآتية سوف نعرض عدداً من المساجد المعروفة في العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، وسنبدأ بإلقاء نظرة سريعة على قصة بناء الكعبة.

قصة بناء الكعبة الشريفة:

كان إبراهيم عليه السلام ينزل في مشارف الشام فضاقت زوجته سارة بجاريته هاجر التي ولدت له إسماعيل، وكان إبراهيم باراً بزوجته فقبل أن يقصي الواد وأمه عنها، وارتحل بهما إلى تلك البقعة التي اختارها الله لمنزل إسماعيل وديعته في ظل دوحة في بطن هذا الوادي في مكة على قيد خطوات من ربوة جرداء ارتفعت عليها قواعد البيت الحرام فيما بعد.

وعاد إبراهيم بعد أن ذكر لهاجر أنه يتركها هي وابنها في رعاية الله. وشعر الطفل بظمأ شديد، فأخذت أمه تسير بين جبلين قريبين هما الصفا والمروة سبع مرات تبحث عن ماء دون جدوى، فخرج لها جبريل عليه السلام فسارت خلفه حتى ضرب الأرض برجله فظهر الماء غزيراً فوق الأرض وكان هو ماء زمزم، وكان ذلك إيذانا بمولد مكة كمدينة عامرة، إذ وفدت قبيلة من جرهم عائدة من الشام أدهشها أن تجد الماء يتفجر في هذا المكان كان قذراً مجدباً فاستأذنت هاجر في النزول والإقامة فأذنت لأفرادها الذين بعثوا إلى أهليهم.

وترعرع الغلام وتزوج جارية لهذه القبيلة، وكانت أمه قد ماتت فاشتغل بالصيد وأقبل إبراهيم من الشام ذات يوم على ابنه فقال له: "إن الله أمرني أن ابني له بيتاً" ثم قاما يحفران لإقامة القواعد، وحمل إسماعيل الحجارة وشرع الشيخ في البناء فلما ارتفع البناء وشق على الشيخ تناوله، قرب إسماعيل حجراً يقوم عليه أبوه ويبني حوله نواصي البيت حتى انتهى فسمي الحجر مقام إبراهيم لقيامه عليه.

وهكذا أنشأ إسماعيل مكة، ورفع أبوه بمعونته قواعد البيت.

ومرت عدة قرون، وولد محمد صلوات الله وسلامه عليه، وكانت أحجار الكعبة قد أخذت تتصدع فارتاعت قريش وحاولت في أمرها ثم عزمت على تجديد بنائها وشارك النبي وهو شاب في نقل حجارتها مع بني هاشم وبقية القبائل التي اختصمت فيما بينها عندما جاء دور الحجر الأسود، ولكن محمد أرضاهم جميعاً بحكمته وتم إعادة بناء الكعبة على

ارتفاع ١٨ ذراعاً ورفعوا بابها وجعلوا لها سقفاً ثم أصبحت مزاراً لكافة المسلمين في الحج وأصبحت تضم المسجد الحرام. ونعود بعد ذلك إلى المساجد الإسلامية المهمة.

المسجد النبوي الشريف "المدينة المنورة":

كان من الطبيعي، بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أن يبني بها مسجداً تقام فيه شعائر الصلاة، ويتخذه مركزاً يجتمع فيه بالمسلمين، يدير منه أمور دينهم ودنياهم. وقد ساهم الرسول الكريم بنفسه في بناء هذا المسجد، الذي تميز بطابع البساطة التامة وهو ما يتمشى مع بساطة الدين الجديد الذي حمل رسالته، فلا زينة فيه ولا نقوش ولا مغالاة.

وقد بنى المسجد من اللبن، واتخذ سقفه من جريد النخيل وأقام أعمدته من جزوعه وقد شيد هذا المسجد على قطعة أرض يملكها طفلان يتيمان صغيران، عرض الوصي عليهما وهو أسعد بن زرارة أن يهبها دون مقابل لهذا الغرض النبيل، ولكن النبي رفض في إصرار، ونقده الثمن المناسب.

وكان للمسجد بابان، يطلق على أحدهما اسم باب عائشة والآخر باب مليكة، أما قبلته فكانت تتجه نحو بيت المقدس، ثم تم تحويلها بعد ذلك شطر الكعبة لما أصدر الله أمره بذلك للمسلمين.

وأخذ المسجد يتسع وتزداد مساحة رقعته عاماً بعد عام بتزايد المسلمين. وقد بدأت هذه الزيادات في عهد الرسول حين أمر بضم مساحة أخرى من الأرض إليه لمواجهة زيادة عدد المصلين بعدد كثرة دخول الناس في الإسلام وإقبالهم على أداء الشعائر في المسجد. وتعددت هذه الزيادات في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان بعد أن لمسا عدم تناسب مساحة المسجد مع كثرة القاصدين لزيارة قبر الرسول من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فأمر عمر بإضافة دار كانت للعباس بن عبد المطلب إلى المسجد وكانت تجاوره، فهدمت وتم توسيع المسجد بها، أما عثمان فأدخل عليه بعض التحسينيات والتجديدات ليجمله فجعل أعمدته من الحجارة بدلاً من جزوع النخيل وسقفه من الساج بدلاً من الجريد.

لكن بعد التجديد الذي أدخله عمر بن عبد العزيز في عهد الوليد بن عبد الملك من أكبر وأهم التجديدات التي أدخلت على هذا المسجد في صدر الإسلام، وكان عمر يشغل منصب والي المدينة، فضم إلى المسجد حجرات زوجات النبي فزادت مساحته، أما الوليد فقد أمر بالاستعانة بخبراء وعمال من الدولة البيزنطية بلغ عددهم الثمانين حضروا بموافقة إمبراطور الروم الذي لبى رغبة الوليد في هذا الشأن، وقد أنفق الخليفة الأموي على هذا المسجد عن سعة، ولم يضن على تجديد وتجميل مسجد النبي بمال أو جهد، فزين جدرانه بالفسيفساء والأحجار الثمينة، ودعم أعمدته بالحديد. وظل الحكام يجملون هذا المسجد في

فترات مختلفة ومتباعدة وما زالت التجديدات والتحسينات قائمة فيه حتى الآن.



"واجهة المسجد النبوي في المدينة المنورة من الخارج، كما تظهر اليوم"

مسجد عمرو بن العاص "الفسطاط" :

ويعتبر أقدم مسجد في مصر، ويعرف أيضاً باسم المسجد العتيق، وكان المسجد الجامع الوحيد في الفسطاط، ولا يزال قائماً حتى الآن في حي مصر القديمة بالقاهرة. وقد أسسه عمرو بن العاص عام ٢١هـ بعد أن فتح مصر، واتخذ قطعة من الأرض في مدينة الفسطاط العاصمة

الجديدة لمصر الإسلامية، كانت هذه الأرض تقع شمالي حصن بابليون ويملكها قتيبة بن كلثوم التجبيي، وقد تبرع بها ايبني فوقها عمرو مسجداً للمسلمين.

وكان المسجد صغيراً في بادئ الأمر، فلما جاء الوليد بن عبد الملك أمر واليه في مصر "قره بن شريك" بتوسيع هذا المسجد، وبنى له محرابه لأول مرة وقد اتخذ رسم هذا المسجد كنموذج للمساجد في مصر زمناً طويلاً، فكانت كلها تبنى على غراره.

جامع عمر "القدس":

وينسب هذا المسجد إلى عمر بن الخطاب، رغم أن عمر لم ينشئ هذا المسجد بل لاختياره المكان الذي يقام فيه فقط. ويعد من أقدم المساجد في الإسلام، ويقوم في مدينة القدس، ويشغل مساحة واسعة تحتط بها سور، وقد فرغ من بنائه عام ٧٢هـ (٦٩١م).



"منظر خارجي تظهر فيه قبة جامع عمر في القدس، وهي القبة التي تعلو الصخرة المعلقة"

وللمسجد أربعة أبواب يقابل كل باب منها إحدى الجهات الأربع. وهو مكسو بالرخام في القسم الأسفل من جدرانه، ومطعم بالميناء والفسيفساء والرسوم المتعددة الألوان بأشكالها الهندسية الرائعة، وهو فوق ذلك مزين بالصحائف البرونزية المطرقة، كما أن نوافذه مزينة بآلاف القطع الزجاجية الملونة، وللمسجد منبر رخامي جميل الصنع تعلوه قبة صغيرة.

أما القبة الكبيرة نفسها التي تتوج الجامع كله فتحوي الصخرة المشرفة التي يتميز بها هذا المسجد، وهي الصخرة التي هم إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليها امتثالاً لأمر الله تعالى، ويبلغ طول هذه الصخرة سبعة عشر متراً وارتفاعها مترين يحيط بها سياج من حديد ترتكز عليه.

ويعتبر هذا المسجد، ثالث الحرمين الشريفين – بعد الحرم المكي في مكة والحرم المدني في المدينة – ويتميز بهذه القبة التي تأخذ شكلاً دائرياً ترتكز على أربع ركائز ضخمة، وقد صمم السقف والأعمدة بحيث يستطيع الناظر أن يرى جميع أقسام المسجد من أية نقطة بداخله.

المسجد الأموي "دمشق":

ويعرف أيضاً باسم مسجد دمشق. بدأ بناء هذا المسجد أبو عبيدة بن الجراح، ولكن واصل البناء وأتمه الوليد بن عبد الملك واستغرقت الفترة التي تم بناء هذا المسجد خلالها ثماني سنوات (بين عامي ٨٨ هـ، ٩٦ هـ).

وقد أنفق الوليد على بناء هذا المسجد وتجميله ببذخ بالغ، حتى يقال أن السجلات التي تضمنت نفقات البناء نقلت إلى مقر الوليد على ١٨ بعيراً ليدرسها ويقرها، ولكن الخليفة الأموي لم يشأ بحثها فأقرها دون مراجعة وقال "هو شيء أخرجناه لله، ولا نرجو من ورائه شيئاً". وقد أسرف الوليد في الإنفاق على هذا المسجد، وتأنق في بنائه وتزيينه وتجميله حتى ليقال أنه خصص لذلك خراج دولته لمدة سبع سنوات مما

جعل الناس يوجهون إليه النقد ويتهمونه بالتبذير والإسراف، وإنفاق أموال المسلمين في كماليات لا تعود عليهم بفائدة، ورماه بعضهم بقصر النظر، وترامى إليه هذا الاتهام، فخطب فيهم في المسجد عارضاً وجهة نظره ومدافعاً عنها ومذكراً إياهم أنه جعل من مسجدهم هذا إحدى عجائب الدنيا.

والواقع أن الوليد قد تفنن في تجميل وتزيين هذا المسجد، ودفعه ولعه الشخصي بفن العمارة إلى الإنفاق بلا حساب على مسجده، فزين محرابه بالجواهر الثمينة، وجعل سلاسل قناديله من الذهب والفضة وغطى جدرانه بالفسيفساء، وكتب على باب المسجد باللازورد على رقائق مذهبه هذه العبارات "بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، هو الحي القيوم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا نعبد إلا إياه، ربنا الله واحد، وديننا الإسلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم.. أمر ببناء هذا المسجد عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة ٨٨ هـ).

ولما جاء عمر بن عبد العزيز راعه إسراف الوليد في الإنفاق على هذا المسجد، مما أثر على بيت المال، فأمر بنزع السلاسل الذهبية وقطع الفسيفساء من المسجد للانتفاع بثمنها فيما يهم المسلمين، ولكنه عدل عن قراره بعد أن سمع عن غيظ بعثة من سفراء الروم كانت قد قدمت لزيارة دمشق، وطلبت زيارة هذا المسجد فلما زارته أذهلها ما شاهدت من عظمته وفخامته وقال رجالها: "أن العرب إذا كانوا قد توصلوا إلى كل هذا الفن، فلا شك أنهم معمرون طويلاً في الأرض".

مسجد قرطبة "الأندلس":

يعد جامع قرطبة من أهم وأشهر المباني العربية في الأندلس، وقد بدأ عبد الرحمن الأول بإنشاء هذا المسجد (١٦٨هـ) وأتم ابنه هشام بناءه (١٧٧ هـ). ومن بعده تعهده الأمراء والحكام بالتجميل والزيادة حتى أصبح من أجمل المساجد في العالم الإسلامي. وقد بني هذا المسجد في الفترة التي كان الفن الإسلامي فيها في أوج مجده. وكانت الدولة في الأندلس على جانب كبير من الرخاء، فاجتمع المال والفن مع الرغبة في خلق آية من آيات الفن الإسلامي فكان هذا المسجد الذي فاق بعظمته وروعته معابد الشرق كافة.

وكان المسجد يحوي ١٩ صحناً واسعاً و٣٨ صحناً ضيقاً، وكان له في واجهته الجنوبية وحدها وهي المقابلة للوادي الكبير ١١ باباً، وكانت قبته البديعة تستند إلى أعمدة رائعة من مختلف أنواع الرخام أخذت شكل رقعة الشطرنج بلغ عددها ١٠٩٣ عموداً كانت تؤلف في مجموعها غابة بديعة من الرخام والجرانيت ويعلو تلك الاعمدة وتصل بينها أقواس رائعة منضدة مصنوعة على شكل حدوة حصان. أما بواكي المسجد الضخمة فقد بلغت بعد إتمام بنائه ١٦ من الشرق للغرب، ٣١ من الشمال للجنوب، وقد تفنن المعماريون في طلاء أبواب المسجد البالغ عددها ٢١ باباً بالنحاس الأصفر ذي البريق.

أما مبنى هذا المسجد فقد صنع من العاج والخشب النفيس، وقد بلغت عدد القطع الصغيرة التي تم تركيبها ليتكون منها منبر هذا المسجد أكثر من ٣٦.٠٠٠ وصلة عاجية وخشبية دقيقة وقد كان للمسجد محراب رائع زين بالفسيفساء وعقد في أطرافه إطارات من الذهب والإبريز واللازورد.

وكانت الثريات تتناثر في أرجاء المسجد لإضاءته ليلاً وقد استخدام في هذه الإضاءة مئات الثريات تزينها شموع ضخمة كان يبلغ زنة الواحدة منها نحو الأربعين رطلاً، كما زود هذا المسجد بتنور من النحاس الأصفر يحمل وحده ألف مصباح.

وقد قدر ما أنفق على هذا المسجد في عهد عبد الرحمن الأول وحده بأكثر من ٨٠.٠٠٠ ديناراً، كما تبارى ابنه هشام ومن جاء بعده في تحسينه وتجميله.

وقد كان هناك جهاز بشري ضخم مهمته السهر على راحة المصلين وصيانة المسجد وملاحظة نظافته، وتوفير الماء والإضاءة وإحراق البخور من العنبر والعود، وقوام هذا الجهاز ثلاثمائة موظفا انقطعوا لخدمته.

وقد نال ما تبقى من هذا المسجد من آثار إعجاب ودهشة المستشرقين والعلماء الأوربيين، وأعلنوا أسفهم البالغ على ما آل إليه هذا المسجد في عهد الإسبان بعد خروج المسلمين. وفي هذا يقول العالم الفرنسي جوستاف لوبون، "لقد عمد الإسبان إلى تخريب هذا

المسجد فنزعوا الفسيفساء من جدرانه، وكلسوا – أي غطوا بالجبس – الزخارف الرائعة التي زين بها، وطمسوا الكتابات المنقوشة عليه وباعوا تحف السقف بعد أن نزعوها وعبثوا بها، ولم يفلت من التخريب سوى محراب هذا المسجد الذي لا نرى أحسن من زخرفته وسنائه في أي أثر قديم أو حديث مماثل، وهو من أجمل ما تقع عليه عين بشر".

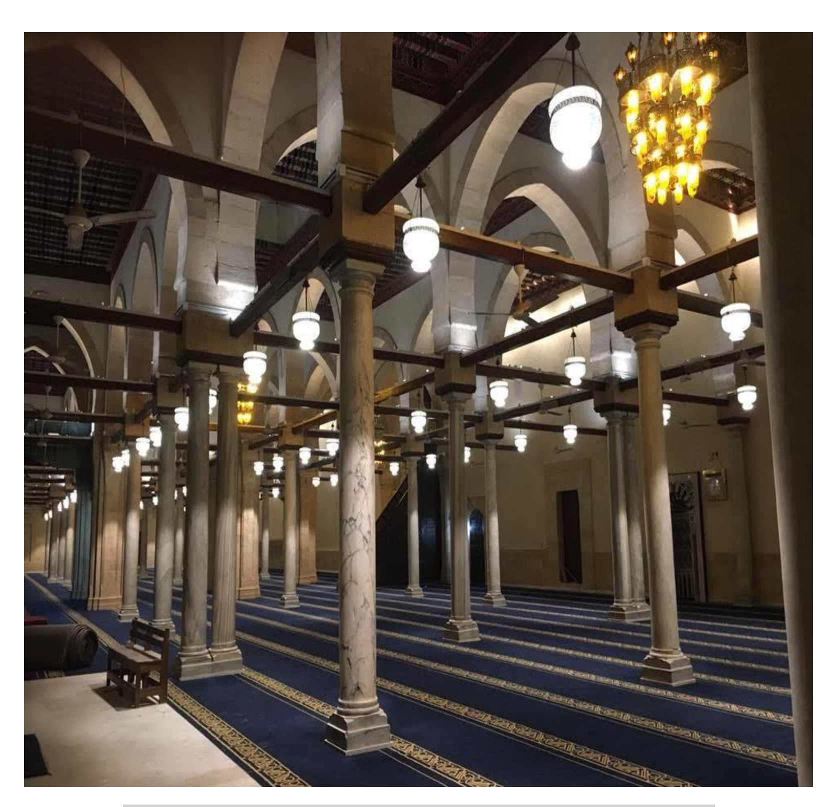
الجامع الأزهر "القاهرة":

إذا كانت القاهرة تتميز بطابعها الشرقي وبهذا العدد الكبير من المساجد المنتشرة في أرجائها، بمآذنها البديعة الممتدة في سمائها، فإن الجامع الأزهر بلا ريب يأتي في قمة هذه المساجد. فهو أهمها وأكبرها على الإطلاق، وهو أحد الآثار المهمة التي خلَّفها الفاطميون في القاهرة عاصمتهم الجديدة، إذ ما كاد جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي يفتح مصر سنة ٣٥٨ هـ حتى وضع مع أساس مدينة القاهرة، أساس الجامع الأزهر في ١٤ في رمضان ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م). وقد استغرقت عملية بناء هذا الجامع عامين كاملين.

وكانت مقصورة المسجد التي بناها رائعة يحيطها ويتخللها ٧٦ عموداً رخامياً أبيض اللون في صفوف منتظمة، وبجوار المقصورة التي خصصت للصلاة، ترك مكان آخر متسع غير مسقوف رصف بالحجر يسمى صحنا يؤدي الناس فيه الصلاة عند ازدحام المسجد بالمصلين أيام الجمع والأعياد.

وقد أخذت مساحة هذا المسجد تتسع وتزداد مقصوراته وأعمدته حتى بلغت ٣٧٥ عموداً لمقصورتين والمباني الملحقة بالجامع، وأما المحراب القديم ويعرف الآن باسم القبلة القديمة، فقد بنيت ثمان محاريب غيره بقيت منها ستة الآن، كما ارتفع عدد المنارات إلى خمس كان ينطلق منها الأذان في وقت واحد، فتتلقف مساجد القاهرة النداء وتردده بدورها.

وكان المنبر مصنوعاً من الخشب المخروطي الجميل الصنع. وزينت جدران المسجد بآيات كريمة كتبت بالخط الكوفي الجميل على طول كثير من حوائطه. وقد أدخل عليه كثير من الحكام زيادات كثيرة، وأنشأوا المساكن لطلاب العلم الذين يتلقون العلم فيه، بصفته أكبر جامعة إسلامية في العالم يقصدها الطلاب من كل مكان، فيقدم للغرباء منهم المسكن والمأكل والتعليم دون مقابل.



"الجامع الأزهر اليوم، كما تبدو أروقته وأعمدته من الداخل"

المدن والقصور العربية

كنماذج رائعة للعمارة المدنية

"بنى العرب كثيراً من المدن المهمة التي لا تزال قائمة حتى اليوم، وعمروا مدنا أخرى ورفعوها كلها إلى مصاف العواصم العالمية، وتناثرت المدن العربية في الوطن الإسلامي شرقاً وغرباً تزينها القصور الضخمة، فكانت أمثلة ناطقة لتقدم العمارة المدنية عند العرب، وسنبدأ بإلقاء نظرة سريعة على المدن المهمة".

كتب ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع العربي في مقدمته المشهورة عن الشروط التي يجب أن تتوافر في المدينة عند بنائها؛ فقال تحت عنوان "باب ما يجب مراعاته في أوضاع المدن":

(يجب عند اختيار موضع مدينة مراعاة طيب هوائها، فإن الهواء إذا كان راكداً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو المناقع المتعفنة أو المروج الخبيثة أسرع إليه العفن، فأسرع المرض للإنسان والحيوان معاً، وتفشت الحميات، كما أن قرب المدينة من الزرع يمكن الناس من الحصول على الأقوات، وقربها من البحر يساعدهم على الحصول على حاجاتهم من البلاد النائية، كما يجب أن تحاط المدينة بالأسوار. وأن تبنى إما على

هضبة مرتفعة أو باستواء بحر أو نهر بها حتى لا يصل العدو إليها، إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة).

وهذه الشروط التي أوردها ابن خلدون رغم أنها وردت متأخرة إلا أن العرب قد حرصوا فعلاً على تحقيق أغلبها أو بعضها في كل مدينة قاموا ببنائها.

وقد عمل العرب على تزويد كل مدينة بحاجتها من المرافق العامة فبنوا بها المساجد، وأقاموا الميادين الرحبة وشقوا الطرق المعبدة وأنشأوا المنتزهات ونظموا الأسواق وأكثروا من الحمامات العامة.

ويحسن أن نقف قليلاً عند هذه الحمامات التي أكثر العرب من إنشائها في مدنهم حتى يقال أنها بلغت في بغداد وحدها إبان العصر العباسي الأول أكثر من خمسة آلاف حمام، كانت في جملتها تقام على نمط واحد، وتشتمل على متكأ كبير في ردهته ينال المستحم فيه قسطاً من الراحة ويخلع ثيابه وينتعل نعلاً من خشب، ثم يلتف بمنشفة، ويدلف إلى غرفة الحمام وبها حوض من الماء تبلغ حرارته نحو الخمسين درجة، فيستلقي على الرخام، ويدلك عامل خاص جسمه جيداً لتنظيفه، ثم يسمح له بالخروج إلى ردهة أخرى فيستريح قليلاً ويرتدي ملابسه ويغادر الحمام.

ولا شك أن حرص العرب على إنشاء الحمامات بهذا الشكل وعلى هذا النطاق الواسع، دليل على اهتمام العرب كشعب بالنظافة وحرصهم عليها.

وقد عالج العرب في قصورهم وبيوتهم مشكلة ازدياد فترة الحر في فصل الصيف وتغلبوا عليها بطريقة غاية في البساطة، تهدف إلى تكييف الهواء بالمعنى المعروف اليوم، ذلك إنهم كانوا يثبتون قطعاً من الخيش المبلل بالماء بحذاء فتحات الأبواب والنوافذ، فإذا اندفع الهواء الحار إلى الداخل تأثر برطوبة الماء وأصبح بارداً منعشاً، كما لجأ البعض إلى تثبيت مروحة كبيرة في سقف الحجرة يتدلى منها حبل، ثم ترش المروحة بالماء المخلوط برائحة طيبة كماء الورد فإذا أراد الجالسون هواء رطباً زكياً، فما عليهم إلا أن يجذبوا الحبل فتتحرك المروحة دافعة الهواء البارد المعطر نحوهم.

وتغلَّب العرب على ظاهرة تراكم مياه الأمطار، عند اشتداده، فوق أسطح بيوتهم، فأدخلوا نظام الأسطح المسنمة أي المحدبة على غرار البيوت الأوربية الحالية، ونجحوا بذاك في التغلب على هذه المشكلة.

المدن العربية

وفيما يلي نستعرض عدداً من المدن العربية المهمة التي أنشأها العرب:

البصرة

في عهد عمر بن الخطاب وفي عام ١٦هـ، اختط عتبة بن غزوان مدينة جديدة تنزل فيها القبائل العربية التي نزحت إلى العراق، واختار

المكان الحالي الذي تقع فيه مدينة البصرة، وقد راعى عتبة عند اختيار هذا الموقع توافر الهواء النقي والكلأ الوفير والمراعى الغنية وامتداد الفضاء الرحيب، وقد أقر الخليفة عمر هذا المكان بعد أن علم أن هذا الموقع لا يحول بينه وبين المسلمين بحر أو عائق يعرقل إمداد المدينة الجديدة وسكانها المسلمين بالجند إذا لزم الأمر.

وقد بدأ عتبة بإنشاء المسجد ودار الإمارة، ثم ترك لكل قبيلة حرية بناء خطة لها فأقبلت القبائل على بناء دورها من الغاب ثم بالآجر والحجارة بعد ذلك، وقد تعددت الخطط والمساجد في المدينة واستفحل العمران بها واتسع، كما تعددت المصانع والحوانيت بمرور الوقت بهذه المدينة.

وقد تبوأت البصرة المركز الأول في التجارة في هذه المنطقة بسرعة فربطت الهند والصين بالعراق، وربطت العراق بالمغرب، وقصدتها القوافل القادمة من كل صوب، وحطت فيها السفن رحالها وأثقالها وحملت منها المتاجر والبضائع، حتى أصبحت في العصر العباسي الأول من أهم المراكز التجارية في الدولة كلها ولقبت (بباب بغداد الكبير، ومدخل دجلتها المتدفق، بضروب المتاع والسلع من أطراف الدنيا) وأطلق عليها اسم قبة السلام، وأصبحت واسطة العرب والعجم.

الكوفة

ما كادت القبائل العربية النازحة من قلب الجزيرة العربية تستقر في البصرة وتمضي فيها بعض الوقت، حتى تبينت في جو هذه المدينة الوليدة تشبعاً بالرطوبة لوقوعها على نهر دجلة ولكثرة المستنقعات المجاورة للمدينة، فضايقتهم هذه الرطوبة، لتعودهم على حياة البادية بهوائها الجاف، فرغب بعضهم في البحث عن مكان آخر يتخذونه بديلاً عن البصرة، ويكون بعيداً عن المستنقعات والهواء المشبع بالرطوبة، فأخذ سعد بن أبي وقاص يبحث مع رجاله عن موقع مناسب ويتفق مع رغبتهم، وكان أن وقع اختيارهم على مكان قرب الحيرة غربي نهر الفرات، وبدأ العمل في بناء مدينة جديدة قدر لها أن تولد في نفس الوقت الذي كانت فيه شقيقتها البصرة تستكمل ملامحها، فقد بدأت القبائل العربية تضع أساس المدينة الجديدة عام ١٧هـ وبنى الجنود خططاً لهم على غرار تلك التي بنيت أو التي كانت لا تزال تبنى في البصرة – أي من الغاب في أول الأمر، وقد وقع حادث لهذه الخطط تسبب في تدميرها عن آخرها بسبب التهام النيران لها، فعاد الجند يبنون خططهم من جديد ولكن باللبن والآجر، وفي قلب المدينة تماماً كان مسجد الكوفة ودار إمارتها يرتفعان حتى يكونا مقصداً سهلاً لكل فرد من السكان.

وقد أعجب علي بن أبي طالب بهذه المدينة، وآنس من أهلها ميلاً إليه، فاتخذ منها مقراً لخلافته وعاصمة لحكمه، وأصبحت بانتقاله إليها،

حاضرة للدولة الإسلامية في عهده. وتميزت الكوفة بطيب هوائها واتساع طرقاتها وخصوبة أرضها وكثرة خيراتها وسهولة مواصلاتها بالعالم الخارجي.

الفسطاط

الفسطاط كلمة مشتقة من لفظ Fossatum اللاتيني ومعناه المدينة العسكرية أو "المعسكر المحيط بخندق" لحمايته من المغيرين، وقد احتفظ العرب بهذا الاسم حين فكروا في اتخاذ مدينة لهم تصبح عاصمة لمصر بعد أن فتحها عمرو بن العاص. ولاختيار هذا المكان قصة، فقد كانت الإسكندرية هي العاصمة القديمة لمصر في عهد الدولة البيزنطية قبل الفتح العربي، ولما كانت هذه المدينة الساحلية بعيدة عن قلب الدولة وكانت مهددة في نفس الوقت بإغارات أسطول البيزنطيين عليها، فقد رأى عمرو أن يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب أولاً قبل اتخاذها عاصمة لمصر الإسلامية، فأوفد إليه رسولاً يتلمس الرأي عنده، فسأله الخليفة عمر: "هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل". فرفض عمر اتخاذ الإسكندرية عاصمة للدولة، وكتب إلى عمرو بن العاص، والي مصر وقائد الجيش العربي بها يقول: "إني لا أحب أن ينزل المسلمون منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء أو صيف، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء، فمتى أردت أن أركب راحلتي إليكم، حتى أقدم عليكم، قدمت".

واقتنع عمرو بوجهة نظر الخليفة، وأخذ يفكر في اختيار مكان آخر يصلح لإنشاء عاصمة ينطبق عليها شرط الخليفة، وهداه البحث إلى اختيار مكان مناسب يقع عند رأس الدلتا قرب حصن بابليون، ويشغل المنطقة الواقعة بين النيل وجبل المقطم تحفها الأشجار والنخيل والكروم من الشمال والشرق. وللمرة الثانية أرسل يستأذن عمر، فأذن له.

وبدأت كل فئة من فئات الجيش تبني خطة لها في المدينة، وعرف كل قسم منها باسم قائد أو قبيلة ومن الأسماء العربية للقبائل التي أسهمت في عملية بناء الفسطاط قبائل بني تميم وبني عقبة وبني وائل وغيرها. ووضع أساس جامع عمرو ٢١ هـ وكان أول مسجد يقام في مصر، ونمت المدينة بسرعة واتسعت رقعتها وكان لسهولة الاتصال بينها وبين الجزيرة العربية من ناحية ثم لوقوعها بين الوجهين البحري والقبلي، أثره في ازدهار العاصمة الجديدة خاصة بعد أن عمل عمرو على تجديد وتعميق المجرى المائي الذي كان يربط نهر النيل بالبحر الأحمر عند السويس (القلزم) وأطلق عليه اسم خليج أمير المؤمنين، مما ساعد على توثيق الصلة وتيسير المواصلات بين مصر والحجاز، كما كان عاملاً مهماً من عوامل تنشيط التجارة بينهما. وظلت الفسطاط عاصمة لمصر، حتى تم بناء مدينة العسكر ١٣٢هـ، فحلت محلها.

دمشق

لم تكن دمشق من المدن التي بناها العرب، فدمشق مدينة عريقة في القدم كانت مقراً للحاكم البيزنطي إبان الفترة التي خضعت فيها الشام

للدولة البيزنطية، فلما تمكن المسلمون من فتح الشام عهد إلى معاوية بن أبي سفيان بحكمها، فلما ولي معاوية أمر الشام، اتخذ من دمشق عاصمة للولاية العربية الإسلامية الجديدة ثم أصبحت حاضرة الدولة الأموية بعد ذلك، نظراً للفترة الطويلة التي أمضاها معاوية في حكم الشام، فأحب أهلها وأحبوه، وأصبحوا له بمثابة عصبية يعتز بها، فآثر أن ينقل عاصمة الدولة الإسلامية كلها في عهد الأمويين إلى دمشق.

وارتفعت دمشق في سنوات معدودة إلى مصاف العواصم العالمية، وتضاعف فيها العمران، وسرعان ما ظهرت فيها القصور الضخمة والمباني الجميلة وكانت قصورها ذات أبهاء عديدة تجملها الأعمدة الرخامية تكسى نوافذها بالستور وتفرش قاعاتها بالطنافس وتحلى بالثريات. ويتوسط كل قصر كبير نافورة، وكان الطراز العربي يغلب على طابع البناء والزخرفة والأثاث.

كما تعددت المساجد والحمامات والحوانيت في المدينة، أما بيوت العامة فقد بقيت على طرازها القديم ولكن كان يلحق بأغلبها حدائق صغيرة تزرع فيها الزهور وأشجار البرتقال والليمون، ويمتد إلى داخل كل دار جدول من الماء الجاري إذ أن الأمويين عملوا على توفير الماء لكل بيت في دمشق، فشقوا عدد من الروافد لنقل الماء إليها.

وقد أولى الوليد عاصمته مزيداً من عنايته، وأنفق على تعميرها وعلى بناء مسجدها الشهير المعروف باسم "المسجد الأموي" أموالاً طائلة كما أسلفنا وأسرف في التعمير والتجميل مما عرضه للنقد واللوم.

وكانت دمشق تتميز بأسوارها المنيعة ذات الأبراج العالية، ولها ستة أبواب هي الباب الشرقي وباب توما وباب الجابية والباب الصغير وباب الغراديس والباب المسدود، كما تميزت دمشق بأسواقها المغطاة في شارع طويل تمتد على جانبيه الحوانيت التي تبيع مختلف السلع، وتخلق حركة اقتصادية دائبة وهو المعروف اليوم بسوق الحميدية.

القيروان

كان عقبة بن نافع واليا على برقة ٤٨ هـ من قبل الدولة الأموية، وكان تواقاً إلى مد نفوذ المسلمين نحو الغرب، فطلب من معاوية بن أبي سفيان أن يعينه على تحقيق هذه الرغبة، وأن يبعث إليه بجيش قوي يساعده على أداء هذه المهمة، فرحب معاوية بتلبية طلبه.

ولم يكتف عقبة بالعدد الذي بعث به إليه معاوية، بل عمل على مضاعفته، فجمع أعداداً من مسلمي شمال إفريقيا الذين أبدوا رغبة صادقة في معاونته، وانضموا إليه متحمسين، وبدأ الجيش بعنصريه: العربي القادم من الشام، والبربري الذي اعتنق الإسلام والذي تجمع من أكثر من جهة في شمال إفريقيا زحفا نحو الغرب، والتحم المسلمون الذين كانوا يشتعلون حماسة، بسكان هذه المنطقة من البربر وأحرز المسلمون انتصارات سريعة متلاحقة بعد حرب عنيفة بين الطرفين.

ورأى عقبة أن يتخذ قاعدة للحكم الإسلامي في هذه الجهة، وبعد بحث دقيق وقع اختياره على منطقة بعيدة عن الساحل وبنى مدينة

القيروان التي ما زالت قائمة حتى الآن، وكان عقبة حين رفض فكرة بناء المدينة على الساحل، يرمي إلى تجنيب عاصمته الجديدة خطر الأسطول البيزنطي وهجماته عليها.

وكانت المدينة تضم عدداً من الخطط لكل قبيلة خطة تعرف باسمها، سواء أكانت قبيلة عربية أو بربرية، فكانت هناك خطة قحطان وخطة ربيعة وخطة مضر، وخطة الخراسانيين وخطة البربر وغير ذلك، وقد بنى محمد بن الأشعت الخزاعي العباسي فيما بعد سورا من اللبن يضمها كلها، وقد هدم السور وأعيد بناؤه بالحجارة عام ٤٤٤هـ.

وكان يتوسط المدينة مسجد أنشأه عقبة اشتهر بمئذنته الكبيرة المربعة وكانت عريضة القاعدة ذات ثلاث طبقات متفاوتة الاتساع. وقد أضيفت للمسجد في عهد هشام بن عبد الملك بعض الأجزاء المجاورة حتى يتسع لعدد أكبر من المصلين، وقد أدخلت عليه عدة تجديدات بعد ذلك أهمها ما حدث في عهد الأغالبة حين بنيت القبة المعروفة بقبة البهو البديعة الشكل.

وقد أخذت القيروان تنمو وتتسع مظاهر الحياة العمرانية فيها فاتخذها عبد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب حاضرة لدولته حتى عام ٣٠٣ هـ حين اتخذت "المهدية"– وتنسب إليه– الواقعة على ساحل البحر مباشرة، عاصمة له، وقد بناها خصيصاً لهذا الغرض وتقع جنوبي القيروان بنحو ستين ميلاً فظلت العاصمة حتى انتقال الفاطميين لمصر.

قرطبة

وتقع على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير في إسبانيا اتخذها عبد الرحمن الناصر (الأول) عاصمة لإمارته بعد أن وطد نفوذه في بلاد الأندلس، وبنى بها مسجد "قرطبة الجامع" الذي أشرنا إليه، كما بنى بها قصر الحكم.

وسرعان ما ازدهرت المدينة، واتسع العمران بها حتى بلغ عدد سكانها في منتصف القرن الرابع الهجري نصف مليون نسمة، كما بلغ عدد الدور بها أكثر من ١٣.٠٠٠ داراً، عدا القصور الفخمة التي جماتها وأشهرها قصر الزهراء، وسنعرض له فيما بعد، هذا إلى جانب الحمامات الجميلة التي بلغ عددها أكثر من ثلاثمائة حماما.

وكان يحيط بها ويتخللها عدد كبير من البساتين المثمرة، التي جلبت إليها أنواع النباتات والأشجار النادرة من شتى أنحاء العالم.. وكانت بعض القصور تخصص جانباً كبيراً من مساحتها لزراعة هذه الأشجار المثمرة، ونباتات الزينة مما يضفي عليها جمالاً، ومنها قصور الروضة والزاهر والرشيق والسرور والتاج والبديع والرصافة والمعشوق وغيرها من القصور التي كانت تجمل المدينة وتضفي عليها من روعتها وفنها الشيء الكثير.

وقد أسهم "هشام بن عبد الرحمن" في تجديد المدينة وتنظيمها وتجميلها، فجمل قصر قرطبة القديم، واتخذه مقراً لإمارته، ومدها بقنوات من الرصاص من الجبال القريبة، وأنشأ الصهاريج الضخمة والبرك

البديعة وأحواض الرخام المزينة بتماثيل مختلفة الأشكال مصنوعة من الذهب والفضة والنحاس مما أكسبها جمالاً فريداً، وعمرت المدينة بالسكان حتى أصبح عددهم نحو مليون مواطن.

وقد أشاد الشعراء بعظمة المدينة، وأطلقوا عليها اسم جوهرة العالم. كما اشتهرت بجامعاتها التي كان يفد إليها الطلاب من أنحاء أوربا وكان من أساتذة هذه الجامعات الفيلسوف ابن رشد والطبيب بن زهر والأديب ابن زيد والفقيه ابن حزم وعشرات غيرهم.

بغداد

"بغداد" كلمة فارسية معناها بالعربية "هبة من الله" وكانت تطلق على بلد ساساني قديم يقال له بغداد، يقع على شاطئ نهر دجلة الغربي، فلما وقع اختيار الخليفة العباسي المنصور عام **١٤٥** هـ على هذا الموقع ليكون مكانا يبني فيه عاصمة دولته الجديدة، آثر الاحتفاظ بهذا الاسم.

وتتميز بغداد بقربها من فارس معقل أنصار العباسيين وموطنهم، لهذا رغب المنصور في أن يكون قريباً منهم، كما عرفت هذه المنطقة – إلى جانب ذلك – بطيب هوائها ووفرة خيراتها وجودة زراعتها، وجريان ماء نهرها، وسهولة مواصلاتها مع المشرق والمغرب، ومع الشمال والجنوب على السواء.

وفي هذا يروى عن المنصور قوله عندما اختار هذا المكان: "ستكون هذه العاصمة الجديدة مشرعة للدنيا، كل ما يأتي في دجلة من

واسط والبصرة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بها، فإليها يرد، كذلك كل ما يأتي من الموصل وأرمينيا وما تحمله السفن في دجلة وما يأتي من ديار مصر والرقة والشام والمغرب، يحط فيها وينزل.. فالحمد لله الذي ادخرها لي، وأغفل عنها كل من تقدمني، والله لأبنيها ثم أسكنها أيام حياتي، ويسكنها ولدي من بعدي، ثم لتكونن أعمر مدينة في الأرض".

وبدأ المنصور العمل، فاستعان بنحو مائة ألف مهندس وعامل من الممتازين في مختلف فروع العمارة من بناء ونجارة وحدادة وزخرفة.

ولم يشأ الخليفة العباسي أن يأمرهم بالبناء عوراً كما يفعل غيره، بل عمد إلى فكرة عجيبة ونفذها، ذلك أنه أمرهم بتخطيط المدينة بالرماد، بيوتها وطرقاتها وميادينها، وبعد أن دخلها من الأبواب المخطط بالرماد على الأرض، وتجول في طرقاتها، أمر العمال بوضع كميات من القش على خطوط الرماد المرسومة على الأرض، ثم صب النفط عليها، ووقف بعيداً على مكان مرتفع يحيط به رجاله ومهندسوه أعطى إشارة أضرمت على أثرها النيران في القش المبلل بالنفط، وسرعان ما اشتعلت النيران لتجسم مدينة من اللهب تتصاعد ألسنته الحمراء وتتراقص، وكان منظراً فريداً لمدينة من نار، وأخذ المنصور يجيل النظر في تخطيطها ثانية ويرقب نظامها، فلما أعجبه أمر بحفر الأساس.

وقد جعلها المنصور دائرية الشكل، واتخذ داره وجامعه في قلب الدائرة تماماً، وبنى بجوارهما داراً للحرس ودوراً للدواوين الحكومة. هذا

إلى جانب المنازل التي بنيت لأولاده وكبار رجال الدولة من أمراء وموظفين، ثم يلي ذلك دور الأهالي التي أخذت كلها طابعاً واحداً يغلب عليه البساطة تتخللها أسواق المدينة.

وبني سوراً للمدينة عرضه من أسفل خمسين ذراعاً ومن أعلى عشرين ذراعاً ثم تبعه بسور آخر خارجي زيادة في الحيطة، ولإكساب المدينة منعة ضد أي اعتداء أو هجوم خارجي يتهددها، وقد بلغ ارتفاع هذا السور الخارجي ثلاثين ذراعاً وكان عرضه هو نفس عرض السور الداخلي، وقد زود بعدد من الأبراج.

وقد تخلل هذا السور الخارجي أبواب أربع هي: باب الكوفة، باب البصرة، باب الشام، باب خرسان.

وسرعان ما ازدهرت المدينة الجديدة وعمرت بسكانها المتزايدين الذين بلغوا في عهد الرشيد نحو مليوني نسمة، اشتغل عدد كبير منهم بالتجارة التي انتعشت بسبب ما كان يرد إليها من بضائع من مختلف أنحاء العالم، فأصبحت بغداد مدينة تجارية من الطراز الأول بين مدن العالم أجمع. ففي أسواقها كانت تتوافر أنواع الحرير والخزف والمسك والورق من الصين، والطيب والأصباغ والمعادن من جزر الهند الشرقية، والعاج والعبيد من إفريقيا، والمنسوجات والفراء الثمين من روسيا؛ فكانت المدينة تستهلك من البضائع ما تحتاج إليه وتصدر الباقي للدول الأخرى.

وكانت الأسواق دائما تموج بالحركة والنشاط، وقد أفرد لكل حرفة سوق خاص، فهناك سوق للصناع والتجار وآخر للحدادين وثالث للنجارين، وكذلك الحال بالنسبة للبزازين والعطارين والقصاصين والرياحين وغيرهم.

ولم تأل الدولة جهداً في توفير أسباب الراحة لهم فبلغ مقدار ما أنفق على بناء المدينة نحو ثماني عشر مليوناً من الدينارات أي "ما يقرب من تسعة ملايين جنيها مصريا" أنفق جانب كبير منها على قصر الذهب الذي بلغت مساحته ١٦٠.٠٠٠ ذراعاً، وسنعرض له بالحديث فيما بعد، وقد أنشيء قصر الخلد أيضاً لكي يخلد إليه الخليفة إذا رغب في الهدوء والعزلة، وكان يقع في أطراف المدينة. هذا عدا مئات الحمامات التي انتشرت في أنحاء المدينة.

وكان هناك جهاز بشري ضخم مهمته تنظيف المدينة كل يوم وحمل القاذورات من الطرقات إلى خارج المدينة، فكانت بغداد بحق أضخم مدن العالم، تعد مركز إشعاع علمي وثقافي وفني امتد إلى كافة جنبات العالم الإسلامي دون استثناء. وظلت لؤلؤة متألقة حتى داهمها "هولاكو" عام ٦٥٦ في غزواته البربرية فدخلها ودمرها، وأحرقها في وحشية ليقضي على كل معالم الحضارة – بل والحياة – في المدينة الجميلة المسالمة.

القاهرة

في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ، وفي مكان يقع شمال الفسطاط وعلى بعد ثلاثين متراً شرقي مجرى خليج أمير المؤمنين، أخذت المعاول تحفر الأرض لتضع أساس مدينة جديدة أطلق عليها اسم "القاهرة" لتكون عاصمة لدولة الفاطميين.

وكان "جوهر الصقلي" قائد المعز لدين الله الفاطمي أول الخلفاء الفاطميين في مصر، قد زحف من شمال إفريقيا نحو مصر قاصداً فتحها، حتى تكون مركزاً لدعوة الفاطميين تنطلق منها نحو الشرق لتحقيق أطماع توسعية أكثر من ذلك. فلما تحقق لجوهر غرضه، ودخل الفسطاط والعسكر، لم يشأ اتخاذ إحدى هاتين المدينتين لتكون عاصمة لدولته، فكان أن بدأ في تأسيس "القاهرة" لتكون حاضرة للفاطميين ومركزاً لنشر دعوتهم الشعبية وعلومهم الدينية، وقد اختار باختيار هذا الموقع مكاناً حصيناً يصلح لصد هجمات القرامطة الذين كان يهددون حدود مصر الشمالية الشرقية إذ ذاك.

وكان جوهر يريد إطلاق اسم "المنصورية" على هذه المدينة الوليدة، وذلك نسبة إلى المنصور والد المعز لدين الله، ولكن المعز هو الذي اختار لها هذا الاسم، وظلت القاهرة تحمل اسمها وتعتز به زهاء ألف عام، وما تزال تتسع وتتضخم وتزدهر يوماً بعد يوم.

وكما هي العادة المتبعة في ذلك الوقت في بناء المدن، أخذت كل قبيلة من القبائل البربرية القادمة من شمال إفريقيا مع جيش جوهر تختط لنفسها خطة عرفت كل منها باسم القبيلة التي ستقطنها.

وكانت مساحة المنطقة التي اختارها جوهر محدودة أول الأمر، أخذت شكل مربع لا تزيد مساحته عن ٣٤٠ فداناً يتوسطها قصر الخليفة المعز المسمى بالقصر المعزي أو القصر الكبير، وقد بلغت مساحة هذا القصر وحده سبعين فداناً وكان مخصصاً لسكن الخليفة المعز وحاشيته، وإلى غربه أنشأ الخليفة العزيز القصر الغربي.

وإلى جانب ذلك كله كان بستان الكافوري الملحق بالقصر الكبير يشغل وحده ٣٥ فداناً ويزرع بشتى أنواع الفاكهة والأشجار المثمرة المزهرة، ثم يتناثر عدد كبير من القصور الفخمة للأمراء ودور الدواوين الحكومية، وخزائن السلاح والجند وثكنات عسكرية وعدد من المساجد المهمة على رأسها الجامع الأزهر الذي أشرنا إليه ثم عدد من المساجد منها مسجد الحاكم والأقمر والصالح، وكان العمران ينمو ويتسع يوماً بعد يوم فتعددت الدور والمباني كل منها يخدم غرضاً عاماً ويؤدي خدمة للشعب، فبنوا دارا للضيافة وداراً للوزارة ودارًا لسك النقود وخزانة للكتب وداراً للعلم كانت تضم آلاف المجلدات في كل علم وفن وتفتح أبوابها لكل راغب وتقدم إمكانياتها دون مقابل.

وشغلت القاهرة في أول عهدها الأحياء التي تعرف الآن باسم "الأزهر، باب الخلق، الموسكي، باب الشعرية، الجمالية، الغورية" ثم

أقيم حولها سور كبير جعل فيه أربعة أبواب هي باب النصر ويقع في الشمال، وباب زويلة في الجنوب، وباب البرقة شرقاً، وباب الفتوح غرباً.

وكان هذا السور– الذي بناه جوهر الصقلي – أيضاً من اللبن، ضخماً سميكاً، بحيث كان يمكن لفارسين أن يسيرا على قمته جنباً إلى جنب بجواديهما في سهولة تامة، وقد حفر حوله خندق عميق بلغ اتساعه ستة أمتار بقصد صد هجمات القرامطة أو أي عدو مهاجم.

ولكن لما تهدم جزء من هذا السور، أمر بدر الجمالي وزير المستنصر الفاطمي بهدمه، بعد أن لمس ضعفه وعدم احتماله، وأعاد بناء السور من جديد سنة ٦٤٥هـ وأنشأ فيه نقطاً للمراقبة، وكانت أهم أبوابه: باب زويلة وهو المعروف الآن بباب المتولي، وباب الفرج، وباب النصر، وباب الفتوح، وباب القنطرة – باب الشعرية الآن — وبابا: سعادة والبرقية.

وكانت القصور الباذخة تتناثر في قلب القاهرة وفي أنحائها فتجملها وتعمرها وكانت البساتين الممتدة تلحق ببعض هذه القصور، ويروى كيف كان يزرع فيها من الأزهار: الورد والرياحين والنرجس والسوسن والبنفسج والياسمين والنوار والأقحوان والشقيق والبازلاء ومن أشجار الفاكهة المشمش واللوز والرمان. وكان يتعهدها دائماً أكثر من بستاني يعمل مقراضه في أوراقها حتى لا تطول فيشوه منظر الحدائق المتناسقة، فكان كل ناظر إليها يشعر براحة عميقة ويستمتع برائحة طيبة في نفس الوقت.

وفوق ذلك كله كان الجامع الأزهر مركز إشعاع علمي وديني قويا، يسلط أضواءه على العالم الإسلامي كله في كل مكان، فيقصده المسلمون من كل فج يطلبون العلم ويتلمسون المعرفة، فيفتح لهم ذراعيه وتقدم له كل مساعدة ممكنة دون مقابل، ولا يزال حاداً في تأدية رسالته العريقة على أوسع نطاق.

نماذج من القصور العربية

"نقدم فيما يلي نماذج – مجرد نماذج – لبعض القصور العربية، تصور مدى ما أنفق عليها من مال، ومدى ما أدخل عليها من تجميل وأناقة، حتى أصبحت القصور العربية مثلاً يحتذى في العمارة والزخرفة، والروعة، وسنكتفي بعرض صورة وصفية لقصر من الشرق في بغداد، ولقصرين من الأندلس في قرطبة واشبيلية اعتزازا بمجد عربي عريق تألق زمناً طويلاً في ربوع إسبانيا".

قصر الذهب "بغداد":

قلد العباسيون الفرس في بناء القصور الضخمة؛ فامتلأت بغداد بعدد كبير منها، بنى بعضهم الخلفاء لهم ولأبنائهم، وبنى بعضهم الآخر الوزراء وكبار رجال الدولة، إذ تنافس الجميع في بناء القصور وتزيينها وتأثيثها بأفخم الرياش، ولكن كان هناك قصر واحد يمثل دائماً الصدارة

بينها جميعاً، هو قصر الذهب الذي أنشأه "أبو جعفر المنصور" في قلب بغداد عاصمة العباسيين.

وكان هذا القصر – أو دار الخلافة كما كان يعرف – يكاد يكون مدينة قائمة بذاتها تحيطه أسوار طويلة تمتد لفراسخ عديدة وتضم بين جنباتها كل ما يمكن أن يتوقعه إنسان في مدينة لا في قصر. فمن بساتين واسعة تضم أندر النباتات والزهور والأشجار إلى الأنهار الجارية التي حفرت خصيصاً لتمد سكان القصر بحاجتهم من الماء دون ما حاجة إلى نقله على ظهور الدواب مما يشوه جمال القصر، إلى البرك الصناعية المخصصة للزينة أو الاستحمام، تزينها تماثيل للسباع والطيور ينبثق الماء من أفواهها في منظر ساحر خلاب، إلى قباب هائلة وأروقه فسيحة، أهمها قاعة العرش وكانت تسمى مجلس الأمير وهو المكان الذي كان يستقبل فيه الخليفة – الذي هو أمير المؤمنين في نفس الوقت – كبار الزوار ومندوبي الملوك والحكام.

وقد خصص للخليفة مقعد مميز يحيطه عدد من المقاعد، زينت كلها بالأحجار الثمينة وخاصة اللؤلؤ.

وقد كانت الأرض مكسوة بالرخام المجزع، ومفروشة بالأبسطة والديباج بينما حليت السقوف بالصور والرسوم، وأقيمت على الأبواب ستائر من المخمل المحلى باللازورد، وكانت بعض الأبواب من الروعة بحيث اعتبرت ثروة ثمينة فقد اتخذت مساميرها من الذهب والفضة،

وتفنن الصناع والعمال في نقشها وتزيينها برسوم دقيقة في ذوق بارع سليم فجاءت ذات طابع عربي أصيل.

وقد بلغ ارتفاع القصر ثمانين ذراعاً، وزود بأجهزة تكيف الهواء لتجلب النسيم الرطب في الجو الحار، وهي عبارة عن مراوح مبللة بماء معطر مثبتة في السقف يتدلى منها حبال، إذا جذبت هب نسيم بارد مع رائحة طيبة تعطر الجو.

وقد بالغ "المنصور" في التأنق في بناء هذا القصر فأنفق عليه الأموال الطائلة، وزوده بأفخم الرياش التي جمعها من شتى أنحاء العالم، حتى جعل منه تحفة فنية بديعة.

وكان الأمراء وكبار الزوار إذا قدموا إلى دار الخلافة، دخلوها راكبين نظراً لضخامتها وامتداد الطرق فيها مسافات طويلة ويظلوا راكبين حتى إذا وصلوا إلى الموضع الذي يريدون ترجلوا، ودخلوا يسبقهم ويتبعهم الحجاب ورجال القصر والخدم.

ولم ينافس قصر الذهب إلا شقيقه "قصر الخلد" الذي بناه المنصور أيضاً، وقد سمى كذلك تشبها بجنة الخلد، وكان القصران صنوين في الروعة والفخامة، وقد بنيا على شاطئ نهر دجلة الغربي تجاه باب خراسان، وإلى جانبهما وجدت قصور أخرى بناها الرشيد والواثق والأمراء والبرامكة، وقد تبارت كلها في العظمة والأناقة بعد أن جملت بالحدائق الغناء وزودت بالقنوات المعطاة لنقل الماء إليها.

قصر الزهراء "قرطبة بالأندلس":

على بعد ثلاثة أميال من مدينة قرطبة التي اشتهرت بقصورها الفريدة ومبانيها الضخمة وبساتينها النضيرة، وإلى الشمال الغربي منها قرر "عبد الرحمن الناصر" أن يقيم قصراً لم يبن مثله من قبل، تتحدث بعظمته الأجيال المعاصرة واللاحقة، وأن يطلق عليه اسم جارية له اسمها الزهراء أرادت أن تخلد اسمها ببناء هذا القصر، فحقق لها رغبتها، وكان أن أعلن بدء ميلاد قصر الزهراء ٣٢٤ هـ (٩٣٦م).

ولكن هذا القصر، ما لبث أن عمَّر المنطقة كلها، وتعددت المباني الفخمة حوله، حتى أصبح مدينة كاملة أنيقة تحمل اسم "الزهراء"، ويمكن أن نعتبره إن شئنا ضاحية من ضواحي قرطبة إذا كنا نقيس الأمور بمقاييس الوقت الحاضر، أو مدينة قائمة بذاتها كما كانت تحلم الزهراء، وكما أراد لها عبد الرحمن الناصر.

وقد بنيت هذه المدينة على سفح جبل، وشملت ثلاثة أحياء متدرجة في البناء على هذا السفح، فكانت فريدة في طرازها وبنائها وشكلها، استخدمت فيها أعمدة رخامية مختلفة الأحجام منها الأبيض والوردي والمجزع بلغت ٤٣١٢ عموداً استوردت من قرطاجنة وتونس وسوريا والقسطنطينية.

وقد استغرق بناء هذه المدينة أربعين عاماً، وكان يعمل في بنائها عشرة آلاف عامل يستخدمون ١٥٠٠ دابة كل يوم، وقد أنفق عليها من الأموال ما قدره البعض بما يوازي ثلث خراج الدولة كلها في العام.

أما قصر الزهراء نفسه الذي بدأ عبد الرحمن الناصر بناءه ولم يستطع إتمامه، فقد قام ابنه الحكم بهذه المهمة وتفنن في تجميله وتزيينه، فبلغ حد الروعة، حتى غدا أروع بلاط في أوربا كلها، يقصده السفراء من أباطرة وملوك الدولة البيزنطية وألمانيا وإيطاليا للتمتع بمشاهدته، ومحاولة اقتباس شيء أو فكرة يستوحونها منه وينقلونها إلى بلادهم.

وقد كسيت ردهاته بالرخام، وغطيت حواجز هذه الردهات بالمرمر وزخرفت بأفاريز ذات ألوان جميلة جذابة. أما سقفه، فقد زين بنقوش ذهبية لازوردية متشابكة.

كما كسيت حوائط القصر بالرخام السميك الخالص والمذهب، وكان للقصر ثمانية أبواب إذا دخلت الشمس منها أرسلت شعاعها في صدر المجلس فتحدث أنواراً تأخذ بالألباب بسبب انعكاسها على الأحجار الثمينة التي تزين كل ركن في القصر. أما المجلس نفسه فقد زين بتماثيل من الذهب المرصع اتخذت أشكال الأسود والغزلان والتماسيح والثعابين والعقبان والحمام والديكة والدجاج، وكانت كلها تحيط بركة مائية بديعة الصنع، وتنفث الماء من أفواهها إلى أغلب البركة في حركة دائبة لا تنتهي، فكان منظراً فريداً يأخذ بمجامع القلوب.

وكانت قبة الخليفة تقوم على أعمدة رخامية بيضاء ذات تيجان مذهبة وتشرف على الحدائق الواسعة ذات الأشجار المثمرة والرياحين والزهور والتي تتخذ منها الطيور الأليفة الجميلة مسرحاً لها، وإلى جانبها بحيرة للأسماك النادرة التي كان يقدم لها يومياً ٨٠٠ رغيفا من الخبز لإطعامها، وعلى مقربة من قبة الخليفة كان يقبع حوض بديع الصنع من الرخام السماقي مملوء بالزئبق في شكل بديع ساحر خاصة إذا سلطت عليه أشعة الشمس أو انعكس عليه ضوء القمر، فيأخذ في الحالين بالألباب.

وقد جند لحراسة هذا القصر عدد كبير من المماليك المجلوبين من مختلف أنحاء أوربا وخاصة من المماليك الصقالبة الذين كانوا يشترون إذ ذاك بالمال، حتى عرف هذا الحرس باسم الحرس الصقلبي.

وقد بنى الناصر مسجداً يعد من آيات الفن الإسلامي ولم يبخل عليه بمال، وأقام في وسطه نافورة يجري فيها الماء تحيطها الأعمدة الرخامية الوردية البديعة الشكل، كما أراد أن يؤمن الماء للمصلين فأمر بحفر قناة عبر الجبل حتى لا يحرم المصلون من الماء إذا ما انخفض ماء نهر الوادي الكبير وبلغ طول القناة ثمانين كيلوا مترا فكانت فريدة في طولها وصنعها وما زالت آثارها باقية حتى الآن.

قصر الحمراء "لؤلؤة الأندلس الخالدة" غرناطة:

بناه بنو الأحمر الذين استقلوا بغرناطة ٦٣٠هـ ويعد هذا القصر قمة روائع فن العمارة العربي في الأندلس، ولا يزال قائماً حتى الآن رغم ما تعرض له من تخريب وتدمير على يد الإسبان بعد خروج العرب. زاره فيكتور هوجو، وأذهله ما رأى من عظمة وفنون ماثلة في كل أجزاء القصر؛ فخلَّد زيارته هذه بنشيد يقول فيه:

"أيتها الحمراء.. أيتها الحمراء.. أيها القصر الذي زينتك الملائكة كما شاء لك الخيال؛ فجعلت منك آية للانسجام.. أيتها القلعة ذات الشرفات المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان.. حينما تنعكس أشعة الشمس الفضية على جدارنك تأخذ بمجامع القلوب. وحتى في الليل تسرحين بالألباب.. أيتها الحمراء... أيتها الحمراء....".

ونترك الحديث عن هذا القصر للعالم الفرنسي المحقق "جوستاف لوبون" الذي يقول:

"زرت هذا القصر، ووجدت أن كل ما فيه عجيب، ويمكن أن نقول بحق أنه لا يوجد في أوربا كلها قصر آخر يضارعه".

وأروع ما فيه قاعة الأسود التي قال جيرول دو برانجه عنها:

(يعجز الإنسان عن بيان ما يشعر به حين يمر من قاعة البركة ويدخل قاعة الأسود، فيرى فيها الأروقة التي تزينها الأقواس المنوعة المزخرفة بالنقوش والزخارف المتدلية، وتقع عينه على غابة من الأعمدة،

التي وضع بعضها منفرداً وبعضها مزدوجاً، وبعضها مجتمعاً على شكل بالغ حد الإبداع، يبصر من خلالها التماع مياه فسقية الأسود الرائعة، ولم أصدق أن هذه الزخارف من الجص إلا بعد أن حللها لي أحد أعضاء المجمع العلمي مسيو فريدل مما جعلنا نعترف بإتقان صنع ذلك الجص الذي قاوم تقلبات الجو خمسمائة عاما دون أن يفسد، ولا أعتقد أن مهندساً أوروبياً يمكن أن يعهد على صنع نوع من الجص يستطيع أن يعمر مثل هذا الزمن البعيد بلا عطب).

والحق أن هذا القصر الذي أقيم في غرناطة على منحدر جبل شليد ويشرف على مروج واسعة، يعد آية من آيات فن البناء العربي. ويعد من أجمل قصور العالم قاطبة، ويتميز بقاعته الرائعة، قاعة الريحان وهي قاعة فسيحة يبلغ طولها ٣٤ متراً وعرضها عشرين متراً، روعتها في حوض الماء المستطيل الذي يتوسطها والذي تقوم حوله شجيرات الريحان برائحتها الزكية وتتميز بعقودها العربية التي تستند إلى أعمدة مرمرية كركائز للمقاصير، وما زالت قائمة ومحتفظة بكل ما فيها من جمال وبهجة.



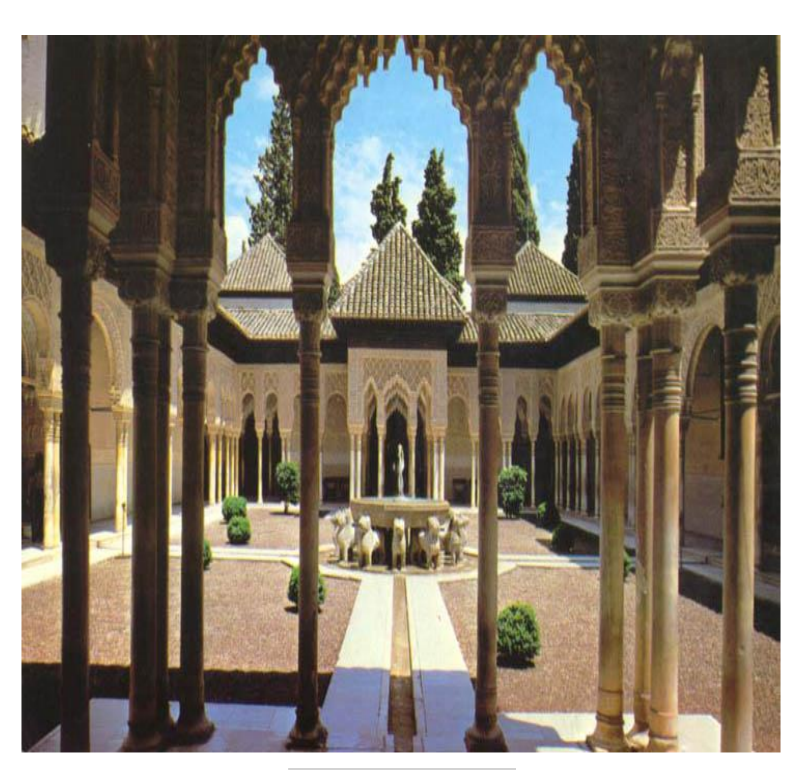
"بهو السباع بقصر الحمراء في غرناطة، تتجلى فيه روعة الفن" العربي الأصيل"

وقد زود القصر بالحمامات الملكية التي تشغل قاعة كبيرة مغطاه بقبة كبيرة ذات أقمار ونجوم، أقيمت على عقود رشيقة تحيط بها شرفة أعدت لجوقه موسيقية من الحسان لتشنف آذان المستحم بعد خروجه من الحمام، فيستلقي بعد ارتداء ملابسه لينال قسطاً من الراحة مع أنغام الموسيقى الهادئة من عزف سرب الموسيقيات البارعات، ولم تخل هذه الحمامات من الزخارف والنقوش وأبيات الشعر المناسب للمقام.

وكان القصر في الجملة تحفة رائعة أذهلت الإسبان لما تسلموا تقاليد الحكم بعد خروج العرب؛ فماذا كان مصيره؟

يؤسفنا أن نجيب على هذا التساؤل، والألم يعصر قلوبنا، أن الإسبان أتوا في هذا القصر بما لا يخطر على بال من تخريب دافعه الحقد الأعمى والتعصب الأحمق فقد طمسوا النقوش الجميلة التي تكسو جدران القصر وغطوها بطبقة كثيفة من الكلس، ونزعوا ألواح الميناء التي كانت تزين ردهات القصر، وباعوا بعض أبوابه وأحرقوا أغلبها، وبعد أن أشبعوا نزعتهم الانتقامية العمياء اتخذوا من القصر سجناً للمجرمين ومن جزء آخر منه مخازن لأدوات الزراعة.

ومرت الأعوام، وبدأ الإسبان يتنبهون إلى بشاعة الجريمة التي ارتكبوها وإلى فداحة ما أقدموا عليه، بعد أن اتضح لهم أنهم يجنون بذلك أيضاً على مورد مالي يمكن أن يدر عليهم الذهب لو استغلوا هذا القصر الذي يعد إحدى عجائب الدنيا في الأغراض السياحية، فعملوا على إزالة التكليس الذي يخفي النقوش الرائعة، ورمموا الأجزاء التي هدموها ونجحوا في جذب مئات الآلاف من السياح إليه كل عام، ليعيشوا في رحاب العرب وفنونهم المبدعة الخارقة بعض الوقت يستلهمون فيه ذكرى شعب مكافح ويستمعون بروعة فن أصيل.



"بعض الأعمدة الرائعة"

"التي نجت من التخريب في قصر الحمراء"

الموسيقى والغناء

"رغم ما قرره كثير من الفقهاء من كراهية الاستماع إلى الموسيقى، إلا أن العرب أولوا هذا اللون من الفنون الجميلة عنايتهم واهتمامهم، وأقبلوا عليها وخاصة في عصور التحرر بعد أن اتسعت رقعة الدولة وساد الترف، وكان من الطبيعي أن تقترن الموسيقى بالغناء في عصرهما الذهبي في العالم الإسلامي مشرقه ومغربه".

عرف العرب الحداء منذ أقدم العصور طرداً للوحشة في الطريق واستحثاثا للإبل في السير. والحداء لون بدائي من ألوان الغناء العربي، كانوا يرددون معه الرجز الذي يؤدي منغماً فيبدد شعور المسافرة بالوحدة والملل، فلما جاء الإسلام واختلط العرب بغيرهم من أبناء الأمم المجاورة، استمعوا للموسيقى والغناء في فارس بوجه خاص حيث كان البلاط يولي هذا اللون من الفن عناية ملحوظة.

ولكن طوال عهد الرسول الكريم (ص) والخلفاء الراشدين لم يعرف أن هذا الفن شغل بال أحدهم، لاهتمامهم بما هو أجدى وأهم، ونعني به الفتوحات ونشر الدين وتوطيد حدود المسلمين وتذليل العقبات والقيام بما يتطلبه الأمر من الإصلاحات، ولكن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى أن الرسول (ص) وكبار الصحابة كانوا يطربون لصوت بلال، وكان

صوته ندياً له رخامة خاصة يحرص المصلون على الاستمتاع بها وتذوقها وهو يؤذن للصلاة.

وجاء العصر الأموي، وبدأ الغناء والموسيقى يزدهران كفنين حديثي عهد بالدولة الإسلامية، وبدأ الخلفاء يعقدون لهما الجلسات الخاصة وينفقون بسخاء على المغنين والموسيقيين، وكان معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد من الخلفاء الأمويين الذين انتعشت الموسيقى في عهدهم.

وحل بمجيء العباسيين العصر الذهبي للموسيقى والغناء في الإسلام، فقد أولى الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة والوزراء "وخاصة آل برمك وآل الربيع" عناية بالغة بهما، فكانت مجالس الطرب والموسيقى التي يقيمها الخلفاء وغيرهم لها شهرتها العريضة التي امتدت من بغداد إلى بقية أنحاء الدولة الإسلامية، فتعددت الحفلات الموسيقية الغنائية، وانغمس العباسيون في الطرب، بعد أن تدفقت عليهم الثروات من كل صوب، وعقدوا المجالس لهذه الحفلات في قصورهم في أمسيات حالمة أو صاخبة تمتد إلى الهزيع الأخير من الليل في كثير من الأحيان، وتتسم بطابع من الروعة والبهاء، والفخامة لا نظير له، واستطاب الخلفاء هذه المتعة التي كانت تتفق وعيشتهم الباذخة المترفة وإسرافهم الملحوظ.

وتشبهوا في هذا كله بالفرس، فكانوا يتصدرون المجالس، يحف بهم عشرات من صفوة رجال الدولة والحراس، ثم يعطي الخليفة إشارة

البدء فتنفرج ستارة من المخمل أو الحرير عن سرب من الجواري يعملن إلى جانب المغني ويضربن الدفوف، ويتبسط الخليفة مع المغني أو المغنين ويشجعهم ويجزل لهم العطاء حتى قيل أنه كان يعطي أحياناً ألف ألف درهما.

وكان من أشهر المغنين إبراهيم الموصلي وابنه اسحق، وقد نبغ "إبراهيم الموصلي" في فن الغناء وضرب فيه بسهم وافر، ولقن أصول هذا الفن لعدد من الجواري تلبية لطلب الخلفاء، وكان يتقاضى مرتباً شهرياً ثابتاً قدره عشرة آلاف درهما عدا الهدايا والهبات. وقد تميز بسرعته في أداء الألحان التي كانت طيعة له ومواتية دائماً وكان يقول:

"إذا أردت أن أبدع لحنا، فلابد أولاً أن أتخلص من الهم وأطرده من فكري، وأتمثل الطرب فتسارع إلى الألحان التي أريدها".

أما ابنه "اسحق" فكان كأبيه موسيقياً بارعاً تفرغ لوضع الألحان وأدائها، وكان إلى جانب ذلك أديباً مطبوعاً فوضع كتاباً في الغناء ضمنه أهم الأنغام والطرائف الفنية التي صادقته.

وقد تميز اسحق بطابعه الخاص في الغناء فاستحوذ على إعجاب الخلفاء، وعطاياهم الثمينة ومنها هبة قدرها ٤٠.٠٠٠ ديناراً أمر له بها الأمين ذات ليلة بعد أن استمع إليه وأعجب به، والحق أن الأمين كان دائم الإعجاب به، وكثيراً ما وصفه بقوله "أنه أصدق وأعف وأكثر ديناً وأمانة من غيره".

ومن المغنين الآخرين الذين برعوا في هذا الفن: إسماعيل أبو القاسم، ومنصور زلزل، وبرصوم، ومسكين المدني المعروف بأبي صدقة.. كما برع في الموسيقى: الكندي، والفارابي الذي اصطنع آلة موسيقية من عيدان يركبها ويضرب عليها فتختلف أنغامها باختلاف تركيبها، ويروى أنه حضر مجلساً لسيف الدولة فغنى فيه حتى أضحك الحاضرين ثم أعاد تركيب العيدان في آلته الموسيقية وغنى فبكوا جميعاً وأعاد تركيبها للمرة الثالثة وغنى فناموا جميعاً فتركهم وانصرف!

ورغم براعة المسلمين في الموسيقى في الموسيقى فإنهم لم يعرفوا النوتة الموسيقية حتى يسجلوا عليها تراثهم الموسيقي، فذهب كله أو جله ولم تبق إلا بعض رموز غامضة ساقتها إلينا بعض الكتب التي اهتمت بهذا الفن، وفي مقدمتها كتاب الأغاني.

ومن الآلات الموسيقية التي عرفها العرب: الدُّف، والمزمار، والطنبور، والعود، والرباب، والصنج، والناي، والقيثار، والأرغن.. هذا إلى جانب القانون الذي اخترعه الفارابي.

ويروى أن الخليفة الواثق كان يهوى الموسيقى ويحذقها، وأنه نجح في وضع أكثر من مائة لحن ونغمة على العود الذي برع في العزف عليه.

وفي الأندلس لم يكن اهتمام خلفاء بني أمية بالموسيقى والغناء أقل من اهتمامهم بالفنون الأخرى أو من اهتمام زملائهم خلفاء بغداد بها، فقد شجعوا المغنين والموسيقيين، واستقدموهم من كل مكان وأجزلوا لهم العطاء بسخاء، وكان أشهر المغنين في الأندلس على

الإطلاق: أبو الحسن علي بن رافع الملقب بـ (زرياب)، وقد وفد على الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط بن هشام (٢٠٦/٢٣٨ هـ)، وقد جاء زرياب إلى قرطبة بعد أن تلقى الفن على يد أستاذه اسحق بن إبراهيم الموصلي وبزه فيه، وكان زرياب مولى المهدى العباسي، وقد لزم أستاذه اسحق في بغداد فترة تعلم فيها الغناء والعزف على العود وبرع فيهما حتى فاق أقرانه، وحدث مرة أن غنى في حضرة الرشيد فاستحوذ على إعجابه وكاد يطير طرباً؛ مما أوغر صدر أستاذه اسحق عليه؛ فخشى زرياب أن يحقد عليه اسحق ويقضي عليه، وآثر السلامة فهرب قاصداً الأندلس.

وكان الخليفة عبد الرحمن مولعاً بالغناء، فرحب به وقربه إليه وأغدق عليه من العطايا والهبات الكثير، وأنزله في أحسن الدور وحمل إليه كل ما يحتاجه وكتب له في كل شهر مائتي دينارا من جيبه وثلاثة آلاف دينارا من بيت المال كل عام، وأقطعه عدداً من الدور والبساتين والضياع.

وساعد ذلك كله زرياب على التفرغ لفنه، وتعهد جواري القصر بالتعليم، وبفضله برعن في الغناء والعزف على العود، وكان إلى جانب براعته في تنسيق الألحان وإبداعها، فصيحاً حسن الصوت حلو الحديث يحفظ عشرة آلاف مقطوعة بألحانها، وساعده على ذلك تعلقه بالشعر والأدب.

ومن المغنين الذين اشتهروا في الأندلس أيضاً: عنون، وزرقون.. وكانا من أوائل من أدخل الغناء والموسيقى العربية إلى الأندلس في عهد الحكم بن هشام (١٨٠/٢٠٦هـ).

وهكذا تبارى العلم الإسلامي في المدن المهمة وخاصة في بغداد شرقاً وقرطبة غرباً في الأخذ بيد هذين الفنين الجميلين، حتى كان عهد هاتين العاصمتين بحق العصر الذهبي للغناء والموسيقى العربية.

المراجع المهمة

(أ) المراجع العربية:

١– ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك

٢– ياقوت الحموي: معجم البلدان

٣– اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي

٤– حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي

٥– عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الغربية

(ب) المراجع المترجمة:

٦– جوستاف لوبون: حضارة العرب: ترجمة عادل زعيتر

٧– برنارد لويس: العرب في التاريخ، ترجمة نبيه فارس

٨– ف.بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر

٩– آدم متز: عصر النهضة في الإسلام

(ج) المراجع الأفرنجية:

10- Thomas Arnold; The Preaching of Islam.
11- Stanley Lane-Pole; History of Egypt in the Middle Ages.
12- H. B. Philby; The Background of Islam.
13- L.B. Sedillot; Histoire Generale des Arabes

الفهرس

مقدمة..٥
ألوان من فنون العرب الصناعية........................٨
فن العمارة الإسلامية..................................١٢
المساجد في الإسلام...................................١٩
قصة بناء الكعبة الشريفة:..............................٢١
المسجد النبوي الشريف "المدينة المنورة":................٢٣
مسجد عمرو بن العاص "الفسطاط" :.......................٢٥
جامع عمر "القدس":....................................٢٦
المسجد الأموي "دمشق":................................٢٨
مسجد قرطبة "الأندلس":................................٣٠
الجامع الأزهر "القاهرة":...............................٣٢
المدن والقصور العربية.................................٣٥
المدن العربية...٣٧
البصرة...٣٧
الكوفة...٣٩
الفسطاط...٤٠
دمشق..٤١
القيروان...٤٣
قرطبة..٤٥

بغداد ٤٦
القاهرة...٥٠
نماذج من القصور العربية......................................٥٣
قصر الذهب "بغداد": ٥٣
قصر الزهراء "قرطبة بالأندلس":..............................٥٦
قصر الحمراء "لؤلؤة الأندلس الخالدة" غرناطة:...........٥٩
الموسيقى والغناء..٦٤
المراجع المهمة...٧٠

للمؤلف

١- من المحيط إلى الخليج "دار نهضة مصر"
٢- تاريخ العرب الحديث "مؤسسة المطبوعات، والمطبعة الأميرية"
٣- تاريخ الوطن العربي في العصور القديمة "دار المعارف، والمطبعة الأميرية"
٤- تاريخ ج.م.ع والوطن العربي "مؤسسة المطبوعات، والمطبعة الأميرية"
٥- العلوم عند العرب "دار نهضة مصر"
٦- الفن والعمارة عند العرب " " "
٧- التجارة والاقتصاد عند العرب " " "
٨- الحكم والإدارة عند العرب " " "
٩- أثر العرب في الحضارة الأوربية " " "
١٠- أضواء على حضارتنا العربية "المؤسسة العربية الحديثة"
١١- " " قوميتنا العربية "المؤسسة العربية الحديثة"
١٢- " " الحكم المحلي "المؤسسة العربية الحديثة"
١٣- " " قناة السويس "المؤسسة العربية الحديثة"
١٤- أضواء على الجامعة العربية "المؤسسة العربية الحديثة"
١٥- " " الأمم المتحدة "المؤسسة العربية الحديثة"
١٦- الوطن العربي والإسلامي "تحت الطبع"
١٧- ملامح التاريخ الإسلامي "تحت الطبع"